كتاب اليوم

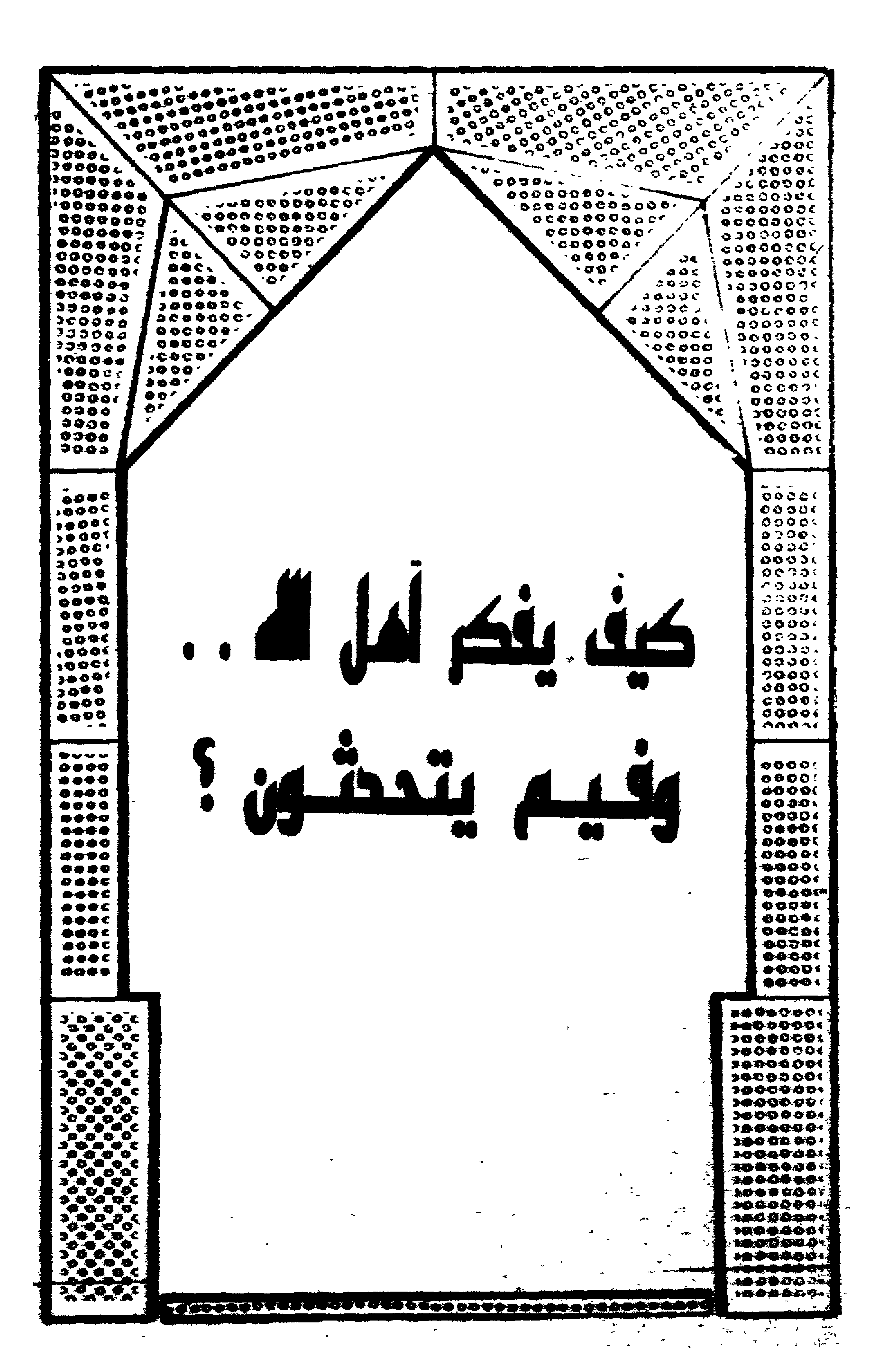
خالد محمد خالد

والموعدُ الله

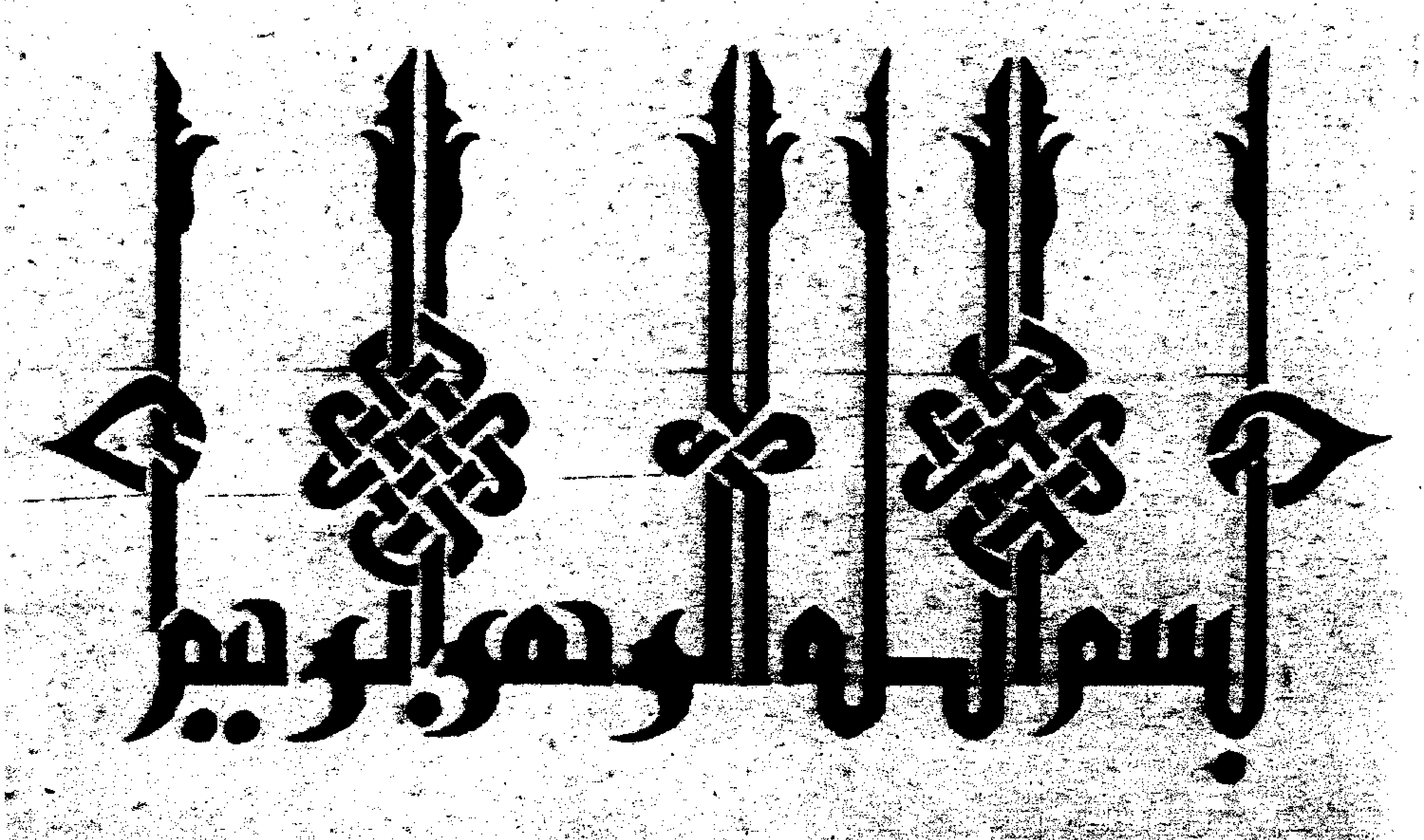
خالد محمد خالد

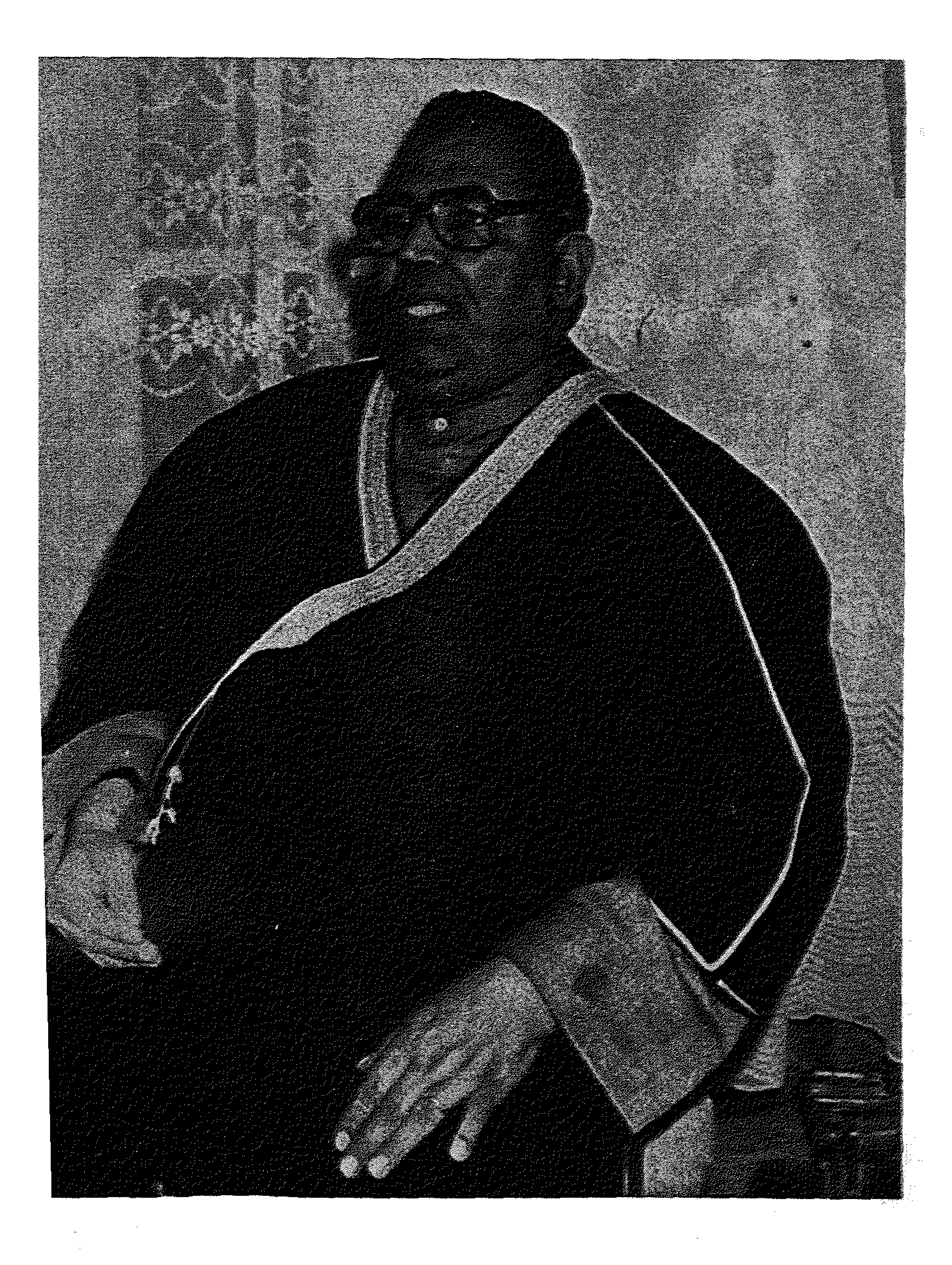
والموعدُ اللهُ

سكرتير تحرير تنفيذى
والموتيفات الداخلية ● محمد عفت



كيف يفكر أهل الله ..
وفيم يتحدثون ؟


بسم الله الرحمن الرحيم





من المؤمنين رجال نعتهم الرسول عليه السلام بأنهم « أهل الله وخاصّته » .

أولئك الذين تبتّلوا لله وحملوا بأيمانهم وفى قلوبهم نور القرآن الكريم . لم يُلههم فى طول الدنيا وعرضها شيء عن ذكر الله بل نذروا لله حياتهم وأسلموا إليه وُجوههم واتخذوه وكيلاً .

وَعَبْرَ التاريخ الطويل كان هناك دائماً ولا يزال فريق من أولئك الأبرار . لا يخلو منهم عصر ولا جيل وكأنهم أوتاد الحياة يمسكون بها كى لا تميد وتهوِى . . وكأنهم بل إنَّهُمْ لمَصَابيح الحياةِ يؤلِّقونها بنور الله . . ! !

وقد عُرفوا عَبْرَ التاريخ بأسماءٍ شتَّى . فتارةً نسميهم : « المتصوفة » . وأخرى « أهل الله » . . و « أولياء الله » . . و « أهل الطريق » . . .

فَعَنْ « أولياء الله » كما أسماهم القرآن العظيم . . وعن « أهل الله » كما وصفهم الرسول الكريم يتحدث هذا الكتاب . . وإليهم إهداؤه . . !!!

وهُوَ ليس تأريخَا لهم ولا تقليماً لِسيرهم إنما هو محاولة لرؤية أفكارهم وفلسفتهم تِجاه طائفة من القضايا التى يُناطُ بها مصير الانسان وخَلَاصُهُ . .

ومن خلال الكلمات الفاتحة والمضيئة التى عَبَّرُوا بها عن أنفسهم وضمنُوها فكرهم العميق والعريق . نحاول تحقيق الغرض الذى انعقد عليه عزم هذا الكتاب . .

ألَا ، وإن للكلمات التى تتفرج عنها شفاهُهم لمذاقاً فريداً . . ! !

فالتعبير النهائى للفكرة ، والجمال المتأنق فى الصياغة . هما السمة المميزة لحديثهم وما ينطقون . .

فأيُّكمْ يعرف فى وصف الصداقة الخالصة والاخاءِ الوثيق أجمع وأمتع من هذه العبارة :

« لا تتم المحبة بين اثنين ، حتى يقول أحدهما للآخر : يا . . أنا ؟ ؟ ! ! »

* وأيُّكُمْ يعرف السخرية من النفاق . وفى التضجُّع من كثرة المنافقين أجمع وأمتع من هذه العبارة :

« لوْ خَلَقَ الله للمنافقينَ أذناباً ما وجد المؤمنون أرضاً يمشون عليها » ؟ ؟ ! !

* وَأيُّنَا لا يستنجد بأقصى طاقات ذكائه ، لكىْ يدرك السر الكبير الكامن فى مثل قولهم :

« نعم الرب ربُّنَا ، لو أطعناه ما عصانا »

وفى مثل قولهم :

« لا أعرف شيئاً لا شك فيه ، أشبه بشك لا يقين فيه ، من هذا الذى نحن فيه »

أوْ فى مثل قولهم :

« ذَلَّ من لا سَفيهِ له » . . ! ؟

إن وراءَ الْكلمات التى يرسلونها فى تركيز باهر فيضاً من الْحكمة العميقة والتجربة المفعمة . .

* * * *

وإنا لَنعجب . كيف تواتيهم الحكمة فى أكثر أساليبها إشراقاً وسلاسة وَأَلَقاً وهم الذين لم يتخصصوا فى فنون الْبلاغة والْقول ولم يُعْنَوْا برعاية هذا النوع من الموهبة . . بل هم الذين كانت الْعبارة الحلوة الآسرة تسبق إلى لسان أحدهم عفو الخاطر فيحتجزها ويستخدم مكانها عبارة أُخرى متقشفة شعثاءَ دَرْأً لما قد يطوف بخاطره من طائف الزهو والافتتان . . ! !

أَجل ، نعجب كيف تنبثق الحكمة من أفئدتهم فى مثل هذا الجمال الفريد لكننا نودع عجبنا سريعاً حين ندرك أنهم ينهلون من النبع الذى لا يغيض حيث تتدفق عطايا ربنا وَهِبَاتُه ـ يَهَبُهَا سبحانه ـ من يشاء , ويؤتى الحكمة من يشاءُ ! !

* * * *

ولقد أُتيح لى فى فترة مبكرة من حياتى ـ لَيْتَهَا دامت ـ أن أصحَب هذا الرّعيل الطاهر فى أخبارهم وآثارهم . .

ولطالما بَهرتنى ـ ولا تزال ـ كلماتهم التى كانت وسيلتهم لابلاغ الصدق , وتبيان الحقيقة .

ويزيد كلماتهم تلك جلالا وقداسة أنها كانت التعبير الأمين الصادق عن حياتهم ومسلكهم فى الحياة فما كان بين حياة أحدهم وكلماته فراغ يتسع لمرور خيط دقيق . . ! !

● كانت قلوبهم من النقاءِ والتبتُّل بحيث ترى الحق كضوءِ النهار .

● وكانت عزماتهم من الصلابة والمقدرة بحيث تحمل تبعات هذا الحق فى عزم الراشدين .

● ثم كانت كلماتهم التى تحكى تجربتهم للناس قواطع ماضيات كالسيوف النقية المرهفة ! ! !

* * * *

والآن يطيب لى أن أقترب من رحابهم فى وجَل المتطفل ورجاء المتوسِّل لأعيش والقراء معى لحظات يُضمِّخها عبير ذِكرهم وذكراهم بين تراثهم الممتلىء وحكمتهم الهادية لنرى : كيف يفكر « أهل الله » وفيم يتحدثون . .

أجل . . مع أفكارهم وكلماتهم . . لا باحثين عن وجوه البلاغة وقضايا المنطق فيها . بل مستسلمين لحبورها ونورها وحكمتها المكنونة فى أعماق الضياء . . ! !

. راجين أن نذهب من نورها ومن بركاتها بحظ ونصيب .

* * * *

وعلى غير عادتى فى التأليف سيجد القراء كتاباً غير مُقَسَّم الى أبواب وفصول .

إنه يبدأ ، ويمضى ، وينتهى . وكأننا نسترسل مع « أهل الله » فى حديث واحد مُتساوِق وموصول . . ! !

. وعندما يلتقى القارىءُ بصفّين من النقاط الى يمين الصفحة فتلك علامة على أننا ننتقل من موضوع . أو من إحدى حلقات الحديث إلى حلقة أخرى عَبْر السِّياق المتّصل فى تدارُك وارتباط .

ولقد تتبعتُ الكثير الباهر من أقوالهم فى مصادر شتّى ، ثم رحت

أستلهم هذه الأقوال وما تنطوى عليه من فلسفة وأفكار . ثم ما تطرحه من قضايا واتجاهات .

ولستُ أزعم أننى استوعبتُها . أوحتى جئت منها فى هذا الكتاب بالكثير . . إنما هى عجالة أرجو أن تكون ـ بعون الله ـ بدايةً لأعمال أخرى مقبلة فى هذا السبيل .

● ● ● ●

ونتذكر ونحن نتهيأ للاصغاء الى صوت الحكمة التى تصدح بها كلماتهم الهاطلة ؛ أننا أمام هذا الرعيل الكريم من أهل الله وخاصّته إنما نتلقى منهم وعنهم طرازاً فريداً من التجربة الانسانية المفعمة بروعة المعاناة ؛ وعظمة الوسيلة ؛ وجلال الغاية . . ! !

ومهما يكن الخلاف أويطل الحوار حول منهجهم . فهناك حقيقة تفرض نفسها على أولى الألباب الذين يعنيهم دوماً أن يعرفوا . .

● تلك هى أن التجربة الروحية والسلوكية التى شكلتها حياة أولئك الأبرار ليس لها من طرازها سواها . .

وأن حظها من الصدق حظ فريد . .

● وأنها كانت وستظل تحمل من الرؤى ما ليس للروح الانسانى عنه غنى ، وتحمل من الثراء العلوى مالا يلد فاقة النفس سواه . . ! !

* * * *

لقد كان أمرهم عجباً ؛ وهم ينشئون فى دأب عجيب أعظم وأتقى وأبقى مشاهد التبتل والولاءِ لله رب العالمين ؛ بوصفه سبحانه أعظم الغايات التى يجب على الوجود الانسانى أن يعيش لها ويُنَمِّى مواهبه تحت راياتها . .

● تعلَّموا العلم وعلَّموه .

● أنضوا أجسادهم فى الصلاة والصيام والنُّسك كافة .

● انتضوا سيوفهم لمقاتلة الغزاة الذين كانوا يتسورون حرمات دينهم وتخوم أوطانهم .

● وعاشوا حياة خارقة فى محاولاتهم الباسلة لتتويج إرادة الانسان . . هؤلاء هم الذين كانوا يوصفون تارة بالصوفية . . وأُخرى بالمجاذيب .

ولكن اسمهم الحقيقى هو (أهل الله وأولياؤه) ذلك أنهم فى كل ما كابدوا وجاهدوا . . لم يريدوا وجهاً غير وجه الله العَلى المجيد .

والعبارة التى اخترتها عنواناً لهذه الصفحات ، ليست سوى الشعار الذى نحتوه هم لحياتهم .

ذلكم هو : « والموعد الله » .

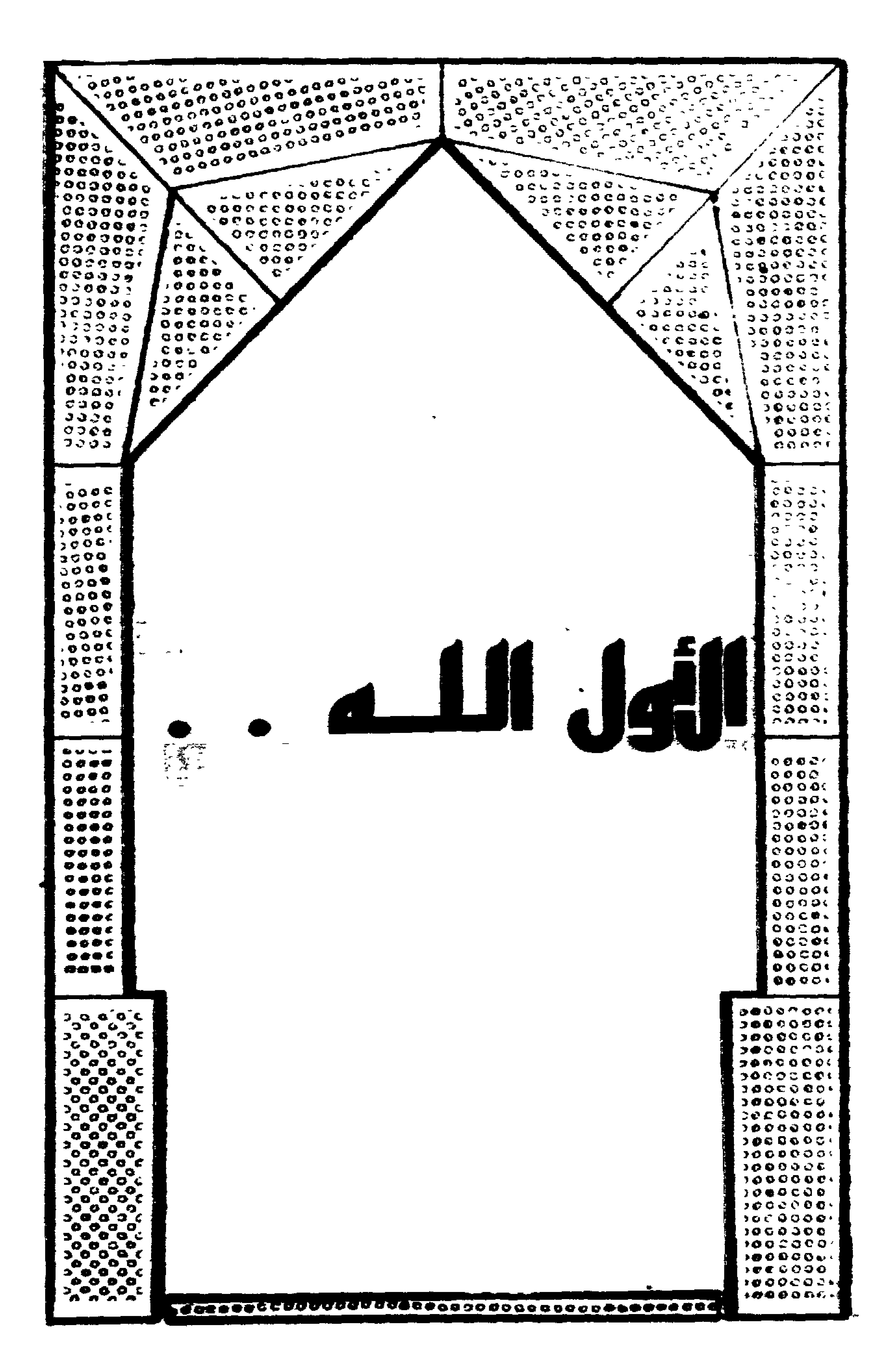
* * * *

لقد رفعوه فى وجه الاغراء الزاحف ، والخطر المحدق . . وَدَمْدَمُوا به على كل قوى التثبيط والضلال . . وكان المعْرَاجَ الذى تسنَّمتهُ أرواحهم إلى روضات الله ذى الجلال والاكرام .

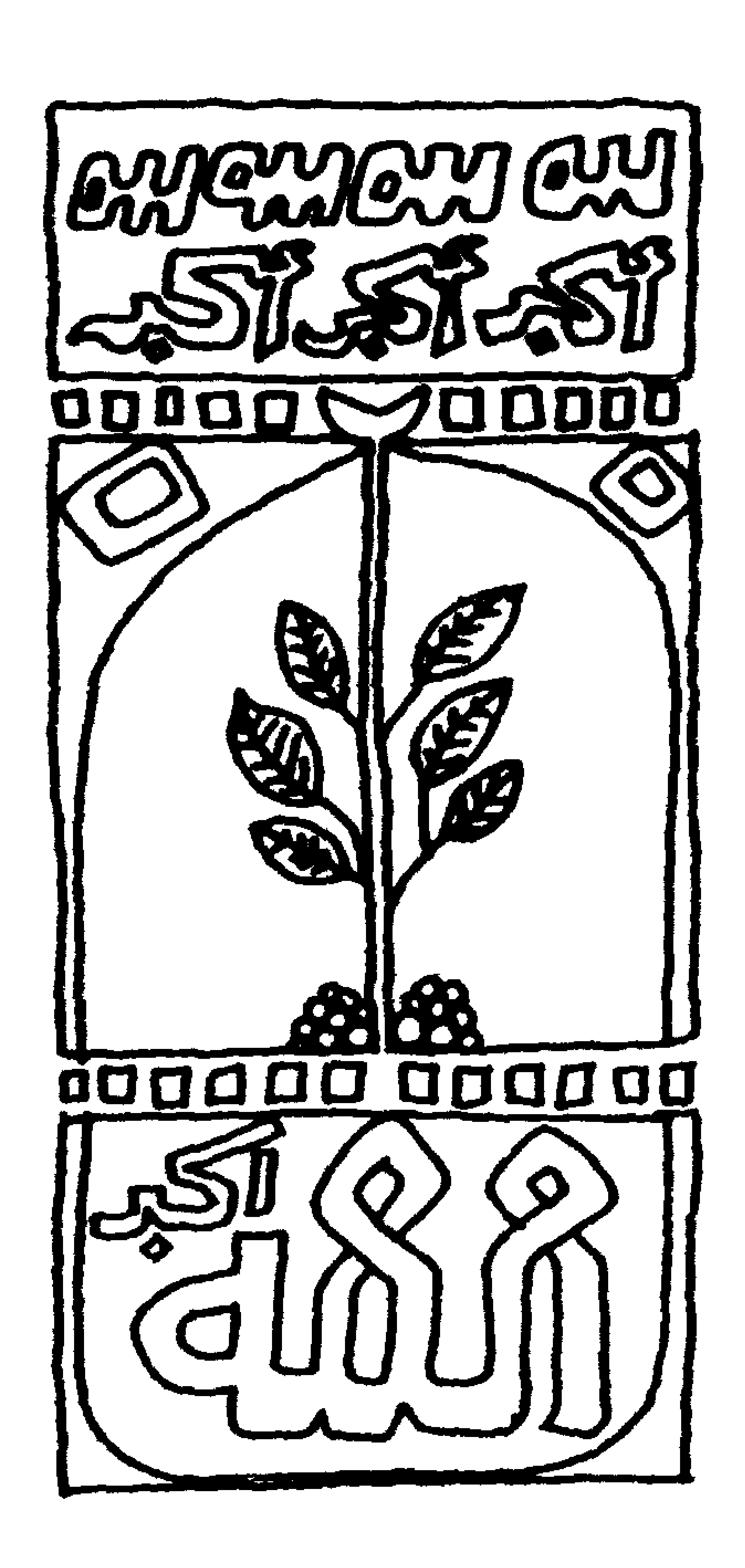
فليمنحهم الله المزيد من خير ما أعدَّ لهم من نعمة ورفعة وثواب . . وليكن لنا من واسع فضله تمامُ نعمتِهِ وعافيتِهِ ، وحسن مآب .

●●●

* خالد محمد خالد



الأول الله ..


الله اكبر

من أشواقهم إليه يبدءُون . . وإلى مُثولهم بين يديه ينتهون . . من الله الملِك الحيَ القيوم تبدأ مسيرتهم . .

وإلى الله الملِك الحى القيوم ينتهى مَسراهم ومعراجهم . . فهو ـ سبحانه ـ الأول والآخر . .

ورغبتهم فى التعرف إليه ، وشوقهم إلى محبته ولقائه ، يمثلان شَدّة الزناد . . حيث تنطلق الطاقة المشتاقة فى عنفوان مقتدر ، ذاهبة إلى هناك . . لا تلوى على شىءٍ ، مُيمِّمة وجهها شطر الطريق المفضى إلى سدْرَةِ المنتهى . . غائصة فى البحار المجهولة . . مُتسلِّقة جبال الضَّنى والهَول . . مجتازة تخوم المألوف ، إلى عالم كل ما فيه عجيب ، وجليل وبلهر . . ! ! وعلى الرغم من أنهم مسافرون إلى الله . فهم فى ذات الوقت مسافرون بالله .

فإذا كان سبحانه « الآخر » الذى يقطعون الأعمار وثباً فى السفر إلى رضوانه وجلاله ، فهو أيضا « الأول » الذى يبدءُون الرحلة من دعوته ، ومشيئته ، وتوفيقه . ومن إرادته التى تقول للشىء : كن فيكون . . ومن حوله وقوته اللذين لولاهما ما قدر أحد على حركة أو على سكون . . ! !

ولقد أدركوا ماعَمى عنه كثيرون ، وهو أن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن مُزمع السفر إلى رضوانه لا يكادُ يُلوِّح بعزمه وبأشواقه حتى يجد كل مراكب النعمة فى انتظاره ، لتنطلق به فى الموكب المجيد والسعيد . . فالربّ الذى يشدون الرحال إلى رحابه ليس فقط ، الأول فى وُجوده . . بل والأول فى جُوده . . ! !

وهو ـ سبحانه ـ لا يعوق المهاجرين إليه ، والمسافرين إلى رضوانه بل يجعل لهم الأرض مهداً والسماءَ سبُلا . .

ولقد فهم أولياؤه هذا فوضعوا أعينهم على أنفسهم حتى لا يُؤتوا من قبلها بما يعرض الرحلة لِلتِّيه والضلال .

وهنا نلتقى بـ « أبى حازم سلمة بن دينار » يقول فى بهاء عظيم :

« لأنا مِن أن أمْنَعَ الدعاءَ ، أخوف علىّ مِنْ أن أمْنَعَ الاجابة »

أى تعبير نهائى لهذه الفكرة يفوق هذا التعبير ويسبقه . . إنه لا يخشى أبداً أن يبسط يد الضراعة إلى ربه فلا تسارع إليه يمين الرحمن بكل برها ونجدتها وحنانها وعطاياها .

لا يخشى أن يقرع البابَ فلا تُفتح له أبواب . . فذاك أمر مفروغ من تيقُّنه .

إنه على يقين من قول الله لعباده فى حديثه القدسى :

« مَن مشى إلى شبِراً ، مشيْت إليه ذراعا ، ومن مشَى إلّى ذراعاً ، مشيت إليه باعاً ، ومن أتانى يمشى ، أتيتُهُ هَرْوَلَة »

كما أنه على يقين من قوله تعالى لعباده فى قرآنه العظيم :

« ادْعُونى ، أَسْتَجِبْ لكمْ »

فتقبُّل الله أعمالنا ، وفتحه أبواب فضله لنا ، لم يكونا قط موضع تساؤل من أهل الله وأوليائه ، انما المشكلة ماثلة فينا نحن ، فهل نحن أهل لأن نريد ؟ . ثم هل نريد حقاً ؟ . هذه هى المشكلة . أما حين نريد ونحن للارادة أهل ، فإن كل قوى السماءِ والأرض توضع على الفور فى خدمة ذلك العبدِ المشتاق الذى آثر الله وأراده ، فكان له من الله ما يؤثر وما يريد . . ! ! !

وهنا نلتقى بـ « أبى وائل شقيق بن سلمة » يقول :

« نعم الربّ رَبنا لو أُطعناه ما عصانا . ! ! »

وهى عبارة تثير الدهش لا محالة من حيث الصياغة والتركيب ، فهل يجوز لنا أن نقول عن الله سبحانه : « ما عصانا » ؟ .

وما نحن بكل أبرارنا وقلِّيسينا ، حتى يطيعنا الله أو حتى يعصينا ؟ ! لكن أهل الله لهم لغتهم التى أُذِن لهم بها . ولهم أذواقهم وأحاسيسهم ومن ثم تعبيراتهم التى تستمد من أبعد الأعماق وأرحب الآفاق . إنهم يعرفون كم يدلل الله عباده . ألم يقل لهم :

« من أتانى يمشى ، أتيته هَرولة » ؟ .

فمن نحن حتى يهرول الله إلينا ، إذا جئناه مُشاة . . ؟ ! .

وألم يقل سبحانه :

« قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل » ؟ ! .

فمن نحن ، حتى يرفعنا الله إلى هذا المستوى من المنزلة عنده ، بل من المنزلة معه . . ؟ !

إن « أهل الله » يتحدثون بلغة قريبة ، تُصور ما أترعت به نفوسهم ومشاعرهم من فهم عن الله وحب له ، بل وإدلال منهم عليه ! .

وهكذا قال « أبو وائل » رضى الله عنه :

لو أطعناه ما عصانا » . . ! !

* * *

ونعود إلى جوهر القضية ، لنرى أهل الله وهم يدركون أعمق إدراك ، جوهر العلاقة بين الله وعباده .

إن أبوته مُفتحة لنا جميعاً - طائعين وعصاة ، أبراراً وخطائين - إنه بالليل والنهار يبادينا :

« هل من مستغفر ، فأغفر له ، هل من مُسترزق ، فأرزقه ؟ . »

وهو يريدنا بكل ما فينا من طين ونور . . ! ! فلا يأس أبداً من فضله ، ولا خوف قط من غياب جوده وعطائه وبره .

إذا ناديناه ، لبّانا . .

و « لو أطعناه ، ما عصانا » . .

وعلينا إذن أن نريده بمقدار قطرة من بحار إرادته لنا ، وحرصه علينا وحبه إيانا .

تلك هي المشكلة ، ولا مشكلة سواها . . أن نريده نحن ، ونهفو إليه ، ونرتمي بين يديه . أما الذي بعد هذا ، فهو ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . فأولئك الذين « يريدون وجهه » لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

ولكن كيف نريد . . ؟ ؟

هنا نلتقي بالشيخ « الواسطي » يقول :

« أول مقام ينزله المريد ، هو إرادة الحق بإسقاط إرادته »

ويقدم « أبو يزيد البسطامي » نفس الحقيقة في أسلوب أوضح فيقول :

« إذا قلت : يارب أين الطريق إليك ؟ جاءتك التلبية : خلِّ نفسك ، وتعال ! »

فلعل الله هكذا يفكرون . . حين تريد أن تريد وجه الله ، فمعنى ذلك أن حظوظ نفسك وهواك لا ينبغي أن يبقى لها صدارة في حياتك ، بل ولا في خلفيتها وجود .

إنك تحتاج إلى « البطارية » وتعتمد عليها في الظلام الحالك . أما في

رائعة النهار ومهرجان الشمس ، فإنك لا تفقد الحاجة إليها وحسب - بل إنك تنساها وتنسى وجودها .

كذلك ، فأنت تشعر بذاتيتك ، وبنفسك ، عندما لا يكون معكما ثالث .

أما في حضرة ثالث ، ورابع ، وخامس ، فإن شعورك العاكف على ذاتك يتوزع بعدد الجالسين معك وبمقدار أهمية كل منهم .

وأنت في حضرة إنسان عظيم تشعر بالارتباك والخجل ، حتى لتكاد تفقد تماسكك ، كما أنك في حضرته تتنازل عن الكثير من خصائصك وعاداتك .

أفتريد أن تنزل في حضرة الله رب العالمين دون أن يطرأ عليك جديد يتناسب مع ضآلة العبد وكبرياءِ الرب . . ؟؟

إن أهون صور هذا الجديد ، هو تخلّيك عن نفسك .

« خلِّ نفسك ، وتعالَ »

إنه دغدغة هواك . . ونبذه بعيداً ، بعيداً ، وذلك يعنى :

« إرادة الحق بإسقاط إرادتك »

إن إدلاج الانسان ليأخذ مكانته بين « المريدين » يشكل فى نظر أهل الله محاولة تتفجر رهبة وخطراً وقداسة . . فمعناها أنك تختار بين الله ، ونفسك .

انظر ، كم هو رهيب ذلك الموقف ، وكم هو مقدس ! ليس ثمت تنكر ولا هروب . . إنما هو الله ، ونفسك . ومن ثم قالوا ، أو قال بلسمهم « حاتم الأصم » :

« إذا رأيت المريد يلتفت عن مُراده فاعلم أنه نذل . . » ! !

وفى تعبير « حاتم » هذا تخفيف وترفق وتلطف فلفتة المريد عن

صُراده ، ليست فى عرفهم نذالة فحسب . . إنما هى ردّة أيضاً . . ها هو ذا « ابن الفارض » يقول مناجياً ربه ومولاه :

ولو خطرتْ لى فى سواك إرادة
على خاطرى سهواً قَضيتُ بردتى

والتخلِّى عن النفس هنا كما يريد أهل الله ، هو فى الحقيقة أمثل طريق لاستبقاءِ النفس وإعلائها ، فالخروج بها من ظلماتها إلى دائرة الضوءِ الذى يغُيثه ويعكسه جلال ربها وبهاؤه ، بعث جديد لها فى أكمل نمط ، وأحسن تقويم .

ومن ثَمَّ ، ففى قولنا إن المريد يجد نفسه فى خيار بين الله ونفسه ، تجوز كبير . إذ أنه بين الربّ والعبد ، لا مجال بل لا وجود لهذا الاختيار . ليس فقط لما بين المنزلتين من تفاوت يُلاشى منزلة العبد ويدسها فى التراب . . بل ولأنه ليس هناك وجود حقيقى لغير الله . . ومن ثمَّ ، فليس هناك وجود لمن يدخل معه سبحانه فى دائرة الاختيار . لذلك كانت فلسفة « أهل الله » فى التخلى عن النفس ماثلة على نحو أكثر فى أن تقدر الله قَدْرَه ، وتعرف لنفسك عجزها ، وحقيقتها . « وهنا يحدثنا ابن عطاء الله السكندرى » فيقول :

« كُن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققاً »

عندئذ ستختفى نفسك دون تكلف أو محاولة . . سينهار غرورها الكاذب ، وتتلاشى كبرياؤها الباطلة . . ستظهر حقيقتها كخلق ضعيف من خلق الله . . كطفل فوق ثبج بحر عريض قامت قيامة أمواجه ، وليس إلى نجاته سبيل ، تمتد إليه فى هدوءٍ واثق ، يد حانية وقادرة ، تقهر البحر وتُذل الموج وتجعل منه هو الطفل الساذج المرعوب سيد البحر

والموج والخطر والهول . . ! ! !

أجل . . عندما تتعلق بعظمة ربك ، وتتحقق من عجز نفسك ، فلتئذ تكون قد تخلّيت عنها ، وتكون فى نفس الوقت ولنفس السبب قد وجدتها ، وامتلكتها ، وربحتها .

ولكن أنَّى لانسان أن يكون بأوصاف الربوبية متعلقاً ؟ ؟ ؟ أليس عليه بادىءَ ذى بدء أن يتعرف إلى الرب . . وأنى له أن يعرف من ليس كمثله شىء ، ومن لا تدركه الأبصار ، ومَن تكاد السماوات يتفطّرْن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا . ؟ ؟ ! !

هنا يقول لنا « أهل الله » : نعم هو ذلك وأكبر من ذلك ، ولكنه مع هذا أقرب إلينا مِنّاً . . وهو أوضح من كل موجود نلمسه ونشمه ونسمعه ونَرَاه . .

ها هو ذا « ابن عطاء الله » مرة أُخرى يقول :

كيف يُتصور أن يحجبه شىء ، وهو الذى أظهر كل شىء .

كيف يُتصور أن يحجبه شىء ، وهو الذى ظهر بكل شىءٍ ؟

كيف يُتصور أن يحجبه شىء ، وهو الذى ظهر فى كل شىءٍ ؟ .

كيف يُتصور أن يحجبه شىء ، وهو الذى ظهر لكل شىءٍ ؟ .

كيف يُتصور أن يحجبه شىء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شىءٍ ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو أظهر من كل شىءٍ ؟ .

كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الواحد الذى ليس معه شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو أقرب إليك من كل شىءٍ ؟ .

كيف يتصور أن يحجبه شىء ، ولولاه ما كان وجود أى شىءٍ ؟ .

ففى كل شىءٍ ظهوره ، وبكل شىءٍ ظهوره ، وأظهر من كل شىءٍ ظهوره ، بل هو الواحد الذى ليس سواه ، إذ لا وجود حقيقياً لغيره ،

ومن ثم ، فليس هناك ظهور حقيقى غير ظهوره ، وليس هناك حضور حقيقى دائم غير حضوره . ! !

إذن فما بالنا نعيشُ عُمياناً عن هذا الظهور ، تائهين ضُلالاً عن هذا الحضور ؟ .

ماذا يحول بيننا وبين شهوده ؟ .

وماذا يحجبنا كل هذا الحجب عن رؤية وجوده . . ؟ !

وها هو ذا يُتم كلماته الهادية فيقول :

« ما حجبك عن الله وجود موجود معه بل حجبك عنه توهُّم موجود معه ! ! »

إذن فالتيه الذى نعيش فى غياهِبه وظلماته تيه صناعى موهوم . إذ ليس هناك أى وجود حقيقى لأى شىء مهما عظم حتى يشغلنا عن الله ويحول بيننا وبين شهوده وملاقاته ، إنما هى الأشباح التى تنسجها أوهامنا فتحرمنا الرؤية ، وتُعمى علينا السبيل .

وأخطر هذه الأشباح جميعاً شبح النفس « نفسى ، ونفسك ، وأنفس الآخرين » بكل ما تموج من أهواءَ وأطماع وتفاهات ، وهكذا كان طريقهم إلى الله ماثلا فى تلك الصيحة المباركة :

« خَلِّ نفسك ، وتعال ! . »

وكم من « مُريد » خلى نفسه ومضى . تخلى عن شهواته وآثامه وخطاياه ، وقطع شوطاً طويلا فى التطهير والتغيير ، ولكن وهو على وشك بلوغ المشارف السعيدة للملكوت العظيم ، إذ به يسقط صريع آفة لم يفتح عليها بصيرته . ولم يشحذ لها تصميمه . تلك هى غرور الطاعة والعبادة . . ! !

هنا قاصمة الظهر لا ريب فيها . وهذا الغرور برغم ارتكازه على

العبادة ، آية ما لاتزال النفس تعج به من خبث واستعلاء .

ولهذا الغرور وجهان : وجهه الأول : رضاك عن نفسك والافتتان بما تأتيه من عبادة ونسك . . ووجهه الثانى : استعلاء على الآخرين بفضلك ، بل وتعييرهم بما معهم من قصور ومساوىء .

إن « أهل الله » لا يمقتون نقيصة مثلما يمقتون هذا اللون الوقح من الغرور .

ذلك أنه حين تسلم نفسك حقاً من ذاتيتها وأنانيتها ، فلن تدلَّ بطاعة أبداً . بل ستظل راكعة لله الذى وفقها ، وهداها ، وزكَّاها ، ضارعة إليه ألَّا يسلبها هذه النعمة بعد إذ أعطاها .

ثم هى لن تعيِّر بمعصية أبداً ، لأنها تعلم علم اليقين أن ليس بينها فى أوج طاعتها وبين الآخرين فى أغوار عصيانهم سوى غلالة رقيقة من ستر الله وتوفيقه ، لو تكشفت عنها لأصبحت والآثمين سواء . . ! !

من أجل هذا لم ينس أهل « الله وأولياؤه » هذا المنزلق الوعر والهوَّة الفاغرة . ها هو ذا « أبو على الهروى » رضى الله عنه وعنهم أجمعين يقول . « اعرف أن كل طاعة رَضيتها منك فهى عليك » « وكل معصية عيرت بها أخاك ، فهى إليك » . ! !

إن خطر رضائك عن نفسك فى هذا المجال ، أنك بهذا الرضا ، ومع تكراره واستمراره ستفقد الإحساس بالخطأ ، ومن ثمَّ تفقد حاسَّة الاتجاه إلى الفضيلة والخير والصواب .

ثم إن هذا الرضا إذا لم تحسن استخدامه ، سيضع مكان الطموح إلى التكامُل والخير . الاغترار بما أصبت من تكامل وخير . ومن ثم فالقعود عن طلب المزيد منهما والشوق إليهما .

أما تعيير الآخرين بضعفهم ، فهو لا يكشف وحسب عن أن النفس قد

ضلت طريقها إلى الله . بل وقبل ذلك ، يكشف عن أنها لا تستحق بحال ، شرف السير على هذا الطريق ! !

ولنصْغ لفلسفة « أهل الله » : تجد هذه القضية يؤلّفها لنا « ابن القيم » فيقول :

« تعييرك أخاك بذنبه ، أكبر إثماً من ذنبه . ففي تعييرك هذا ، تبدو صولة الطاعة وتزكية النفس والمتادلة عليها بالبراءة من الذنب .

« ولعلَّ انكسار الذي عيرته بذنبه وإزرائه على نفسه ، وتخلصه مما أصابك من كبر وعجب وادّعاء ، ووقوفه بين يدي ربه ناكس الرأس ، خاشع الطرف ، منكسر القلب ، أنفع له من صولة طاعتك ومَنّك بها على الله .

« ألا ما أقرب هذا العاصي من رحمة الله . . !
وما أقرب ذلك المدِلَّ من مقت الله . . !

« فذنب تَذِلُّ به لديه . . أحب من طاعة تُدِلُّ بها عليه ! ! .

« ولأن تبيت نائماً ، وتصبح نادماً . . خير من أن تبيت قائماً ، وتصبح معجباً ، فإن المعجب لا يصعد له عمل . .

« وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مُدِلّ . .

« وأنين المذنبين ، أحب إلى الله من زَجَل المسبِّحين ، المدلِّين . .

« ولعل الله سقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داءً قاتلا . . هو فيك وما تشعر » ! ! !

ويتقدم الامام الجليل «أبو الحسن الشاذلى» رضى الله عنه ملخصاً القضية فى إيجاز بليغ فيقول:

«رُبَّ معصية أورثت ذُلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عُجباً واستكباراً»

فغرور العبادة آفة يتوقاها «أهل الله» ويحاذرونها ويحذرون منها، ذلك أن ارتباط هذا الغرور بالطاعة كثيراً ما يُعمى عن خطره، بل كثيراً ما يتنكَّر فى ثياب فضيلة تكريم الطاعة والتحدث بنعمة الله..!!

يقول «إبراهيم النخعى»:

إنى لأرى الرجل يرتكب أمراً أكرهه، فما يمنعنى أن أعيبه إلا مخافة أن أبتلى بمثله».

أجل.. مخافة أن يُبتلى بمثله، فهم أكثر من غيرهم إدراكاً لما تعود به خطيئة التألِّى على الله من قصاص سريع، يقول الامام «جعفر الصادق»:

«من كشف حجاب غيره، انكشفت عورات بيته»

«ومن سَلَّ سيف البغى قُتل به»

ثم إن لهم لحكمة عميقة فى رفض ذلك النوع من التألِّى والاغترار.. فالناس عندهم لا يُحرمون فضلاً يُغبطون عليه مهما تكن أخطاؤهم. وإن حسَنة واحدة تراها فى إنسان لَتشفع له بحسن الظن فيه، لأنها لن تظل واحدة وغريبة.. بل ستنادى إليها غيرها من الحسنات

يقول «عروة بن الزبير»:

إذا رأيت الرجل يعمل الحسنة، فاعلم أن لها عنده أخوات»

«وإذا رأيت الرجل يعمل السيئة، فاعلم أن لها عنده أخوات»

ويرتفع « أبو أيوب السختياني » إلى قمة الادراك السديد للقضية حين يبتهل إلى الله داعياً ، وقائلا :

« اللهم استرنا بالعافية »

فعافية الله سبحانه هي التي تصنع الفارق الشاهق بين الطائع والعاصي . . بين المعافى بالهدى ، المستور بالعافية ، وبين المبتلى بالذنب ، المحروم من العافية .

* * *

إن الخلاص من هذا الغرور الديني ـ غرور الطاعة والعبادة ضرورة لكي يصبح المؤمن صالحاً للسير على طريق القوم الراكضين إلى الله . . و « أهل الله » يولونه أكبر قدر من اهتمامهم وعنايتهم ، لأنه ليس هناك ما يدل على بقاءِ سيطرة النفس وتألهها الكاذب مثل هذا النوع من الغرور .

ولقد كان التوقي من هذا الغرور شيمة أهل الله جميعاً ، حتى الذين لهم قدم صدق عند ربهم ، لم يكونوا ليأمنوا مكْر النفس واغترارها بالطاعة .

هذا هو « الربيع بن خيثم » واحد من كبار التابعين . وكان عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله لا يكاد يراه إلا ويصيح بالآية الكريمة :

(وبَشِّر المخبتين)

ثم يقول له : « لو رآك رسول الله لأحبّك »

هذا « الربيع » عليه رضوان الله ، يُطلب إليه أن يعظ الناس ، فيكون جوابه :

« ما أنا عن نفسي براض حتى أتحول عن ذمها إلى ذمّ الناس »

« وما أريد أن أكون من قوم خافوا الله فى ذنوب
الناس وأمنوا عذابه فى ذنوبهم . . ! »
ألا ما أعمقه . . وما ألقه ؟ ! . .

تُرى من هؤلاءِ الذين يخافون الله فى ذنوب الناس ، ثم يأمنون عذابه فى ذنوبهم . . ؟ !

إنهم فى أحسن مستوياتهم ، وهو فى نفس الوقت أسوؤها حالا وعاقبة ليسوا سوى ضحايا غرور الطاعة . . أنساهم غرورهم الأعمى ما فى أنفسهم البشرية من ضعف ، بل وأنساهم وزرَ الغرور نفسه ، فأمنوا مكر الله تجاه أنفسهم . . فى حين راحوا يدمدمون بوعيده ويتعجلون عذابه وبأسه للآخرين . . ! !

وغرور العبادة هذا ، عرَض لمرض آخر يَفطن إليه أهل الله ، ويقرعون لضحاياه أجراس النذير .

ذلك ما يعبر عنه « إبراهيم النخعى » فيقول :

« ما أحسب أحداً تفرغ لعيوب الناس إلا من غفلة
غفلها عن نفسه »

فهذا الغرور حين يخدع أصحابه عن أنفسهم ويقنعهم بأنهم انتهوا إلى خير ما يرجون ، ولم يعد فى الامكان أبدع مما كان ، يعود فيلوى أبصارهم شطر الآخرين حيث يسول لهم غرورهم أنهم فريق الانقاذ لأولئك الغرقى . . ثم ينفخ أوداجهم فيخيل إليهم أنهم الأطهار والأبرار وينظرون من عَلٍ إلى أولئك الخطائين نظرة تتضمن الاستخفاف بهم والتلمُّظ بعيوبهم :

وذلك السلوك فى نظر « أهل الله » برهان أكيد على أن صاحبه قد غفل عن نفسه . . والغفلة عن النفس عندهم مهما يكن تقلمها الروحى أدهى خطراً وعاقبة من غفلة رجل أعزل عن أسد يحاوره ويتربص به ليجعله

مضغة شهية بين فكيه وتحت أنيابه . . ! !

وليس معنى هذا الذى رأينا من موقفهم تجاه أخطاء الغير ، أنهم يروجون للخطيئة ، أو يتجاهلون خطر الذنوب والآثام . . فما شهدت الحياة مثلهم أناساً تروعهم الهفوة العابرة يأتونها ، وتكاد تجعلهم مِزَقًا وأشلاءَ . . إنما معناه أنهم وُهبوا ذلك الحس اللطيف والدقيق الذى يفرقون به بين أخطائهم وأخطاء الآخرين . فبينما تأخذهم على أنفسهم قسوة يرتضونها ويقدرون عليها إذا بهم يحاولون بالرفق انتشال الآخرين من وهدة الاثم ، رافضين أن يكونوا عوناً للشيطان عليهم ، مكتفين بأن يرسلوا بين الحين والحين صيحة نذير يجلجلون بها فى صفوف الخاطئين ليستيقظوا ، ثم ليقفوا ، وينظروا ، ويسمعوا . .

أما مع أنفسهم ، فلهم شأن آخر عجيب . . فالهفوة الصغيرة تؤرق صاحبها ، وتجعله كجالس عند سفح جبل يوشك أن يسّاقط عليه ويطمره تحت أنقاضه . وهم فى ذلك معذورون ، لأن ما ذاقوه وما عاينوه من مباهج القرب وأفراح الوصول يجعل حرصهم على استبقائه وخوفهم من فقده أمراً لا يصبر على صبر ، ولا يقدر على أناة . . ! !

وهم يدركون أن أهواءَ النفس وفلتات الاثم هى المنزلق الرهيب إلى الردة والانتكاس ـ أى إلى ضياع النعيم الروحى الذى أدركوه إلى جوار الله .

وهم أدرى الناس بحقيى الهفوات ، ناهيك عن كبائر الذنوب ، فقد سمعوا تحذير نبيهم وهاديهم من محقرات الذنوب .

« إياكم ومحقرات الذنوب : فإنها تجتمع على العبد
وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه »

ثم إن مَذاق الطاعة ، ومباهج الوصول كشفت لهم نهايات الطعوم المريرة والقاتلة للذنب ، كبيراً كان أم صغيراً .

وحسن إدراكهم لمكايد الشيطان ومصايده جعلَهم يحاذرون صغائر الذنوب أكثر مما يتوقَّون كبارها ، فلقد علموا أن الهفوات هى التى تخدع المؤمن عن نفسها ، وتتنكَّر فى ضعفها وضآلتها مستغلة استهانة مراكز المراقبة بشأنها . . ! !

ومن هنا ، كان توقِّيهم الهفوات عظيما .

هذا « إبراهيم التميمى » يقول :

« إذا رأيت الرجل يتهاون فى التكبيرة الأولى ، فاغسل يديك منه » . . ! !

إن التكبيرة الأولى التى يدخل بها المصلى صلاته لا تحتاج إلى عناءٍ ولا إلى مكابدة . . ومع ذلك فإن « أهل الله » يَفطنون لأهمية ، بل لحتمية الحضور الكامل قبل وأثناء أدئها . . وأدنى افتقاد لهذا الحضور يجعل صاحبه صفراً . . « فاغسل يديك منه » . ! !

ولأنهم بُصراء بالزمان وبالناس ، ألفيناهم يحملون كل هذا الفزع من الهفوات ومن الأخطاء .

هذا « يحيى بن أبى كثير » يقول :

« لا تعجب ممن هلَك ، كيف هلك ولكن اعْجَبْ ممن نجا ، كيف نجا ؟ ؟ ! »

أجل . . هنا نلتقى بواحد من أهم مُنطلقاتهم وأذكاها . . فمواقعة الخطايا والتردِّى فى مهالكها ، هما القاعدة . . والنجاة هى الأمر الذى لم يعد مألوفاً . .

وهذه الكثرة الكاثرة من الهالكين بالاثم لم تعد موضع عجب ،

ولا مَثار تَساؤُل . . إنما العجب حقاً ماثل فى تلك القِلَّة الناجية . !
فعندما تفاجأ قافلة عزلاءَ فى أرض مسْبعة بوحوش قاتلة تملأُ كل شبر فى الغابة ، ثم تنقض على ضحاياها بكل جوعها وعنفها وضراوة الغرائز فيها . . فلن يتساءل أحد عن الصَّرعى ، لماذا صرعوا . . ؟ بل سيتساءل عن الناجين ، كيف نَجَوْا . . ؟ ؟

والحياة بشرورها . . والنفس بارتكاسها . . والفتن ومُضلاتها . . كل أُولئك غابة . يعيش فيها « أولياءُ الله » على خطر عظيم .

« فالناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » . . ! !

وهم فى فرارهم النبيل من الخطايا والهفوات ، لا يكادون يرون لأعمالهم الصالحات مقاماً .

فـ « سليمان التيمى » ذالك العابد الأوّاب ، يقول له بعض إخوانه هنيئاً ما وُفقت إليه من طاعة وعمل صالح . . فيكون جوابه :

« لا تقولوا ذلك ، إنى لا أدرى ما يبدو لى يوم القيامة من ربى .

ألم تقرءوا قوله سبحانه : وبَدَا لَهمْ من الله ما لم يكونوا يحتسبون » .

إنه لرائع ، فهم « أهل الله » لحقائق الأشياء وسَبرهم أغوارها . إنهم لا يستهينون بحسناتهم تواضعاً . . بل لأنهم يرون اللبَاب المستتر والمخبوءَ للقضية كلها .

فأعمالهم الصالحة ـ أولا ـ لا فضل لهم فيها ، لأن الله هو الذى رزقهم إياها وهداهم إليها وأعانهم عليها .

ثم هى ـ ثانياً ـ صالحة بمقاييسهم هم وإحساسهم . . أما بالنسبة للمعايير التى يتقبل الله بها الأعمال فلا يدرون ماذا تكون . . ؟ وهكذا فهموا الآية الكريمة ، ثم زُلْزِلُوا بها زلزالاً شديداً .

(وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) .

ألم يسمعوا صِدِّيقهم الأول « أبا بكر » رضى الله تعالى عنه يسبقهم إلى ذلك بقوله المأثور :

« لا آمن لمكر الله ، ولو كانت إحدى رِجْلَىّ فى الجَنة » . . ؟ !

وهكذا أرّقتهم مخاوف الذنوب ، ولم تطمئنهم صوالح الأعمال . .

هذا « يونس بن عبيد » يقول :

« إنى لأحصى مائة خصلة من خصال البر ، ما فىّ منها واحدة ! »

وهذا « مالك بن دينار » يقول :

« إذا ذُكر الصالحون ، فأُفّ لى ، وأُفّ » ! !

أما « العلاء بن زياد » فيبشره صاحبه بأنه رآه الليلة فى منامه كأنه فى الجنة ، فيجيبه قائلاً :

« ويحك ! ! أما وجد الشيطان من يسخر به غيرى وغيرك » . . ؟ !

إنه أيضاً ليس التواضع . . ولكنه اتهام النفس الآتى من وقدة المشاعر الوجلة من فلتات الخطايا ، والمزدرية ـ فى جنب الله ـ كل الأعمال الصالحات .

ومن فلسفتهم تجاه الخطايا ، أنها المسئولة عن انطفاء نور الشخصية وضياع بهائها .

يحدثنا « سليمان التيمى » فيقول :

« إن الرجل ليذنب الذنب ، فيصبح وعليه مذَلَّته »

★★★

فالذنوب التى نظن أن قد سترها علينا ظلام الليل ، يفضحنا وإياها ضوء النهار .

والذنب ـ أى ذنب ـ وفى أى زمان يرتكب ، وبأى مكان . . يترك علينا بصماته المهينة والمذلة .

و « أهل الله » الذين يقرءون الوجوه فى نظرة ، أكثر الناس إدراكاً ورؤية لهذه البصمات . من أجل ذلك فإن حديثهم عنها حديث خبير .

إن للذنب عندهم رائحة تفوح ، وتشوّهات تلوح ! ! .

ولئن كانت هذه التشوُّهات تكسو ظاهر الشخصية بالمذلة والهوان ، فإنها تملأ باطنها بالضباب والظلام .

يقول « ميمون بن مهران » :

« إن العبد إذا أذنب ذنباً ، نُكت فى قلبه بذلك الذنب نكتة سوداء ، فإن تاب محيت من قلبه فترى قلب المؤمن مَجْلُوًا مثل المرآة ، لا يأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره . .

« وأما الذى يتتابع فى الذنوب ، فلا يزال ينكت فى قلبه حتى يسود جميعه ، فلا يبصر الشيطان من حيث يأتيه » !

إنه يستلهم حكمته هذه من حديث مأثور لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتصلنا هذه الكلمات بقضية أخرى لها فى الفكر

الصوفى مقام عظيم ، تلك هى قضية « التوبة » .

* * *

إن « أهل الله » الذين يَهولهم خطر المعصية ، بل والهفوة إلى هذا الحد الذى رأينا ، تتفتح قلوبهم وينفتح وعيهم على رحاب الرحمة والمغفرة فيرون من جلالها واتساعها ما لا يرى سواهم من بقية الناس يقول أحدهم ، وهو « أوس بن عبد الله » :

« ليس ثمة ذنب يقول الله له : إنى لا أغفرك . . إلا الشرك به سبحانه »

لقد اختار « أوس » رضى الله عنه هذا التعبير الرقيق الشاعرى المرهف ، ليعكس شعوره الممتلئ والفياض برحمة الله .

ليس هناك ذنب مهما جَشُم وغلظ يستطيع أن يتعاظم عفو الله ومغفرته .

* * *

إن لحظة عابرة تحمل توبة صادقة ، لَتدك دكاً خطايا عشرات السنين حتى تعود وكأنها ما كانت . . لا بل :

« يُبدِّل الله سيئاتهم حسنات » . . ! !

الشرك بالله فقط هو الذى يُحرم جواز المرور إلى عفو الله . وهذا جزاء طبيعى وعادل ، لأن هذا الشرك يتضمن إنكار وجود الله بالكمال والجلال اللذين وصف بهما ربنا ذاته .

ومن ينكر وجود الله ويجحد كماله وجلاله

ووحدانيته في إصرار أعمى وضلال مهين ، يفقد الحق
في رجاء آلائه ومغفرته .

أما الخطايا دون الشرك فللتوابين منها لا رحمة الله
فحسب ، بل وحُبه أيضاً :

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »

والتوبة عندهم ، نزوع جاد وتصميم حازم على
تجنب الإثم وهجر الخطيئة . . والناس فيها
درجات . .

يقول « عبد الله التميمى » :

« شتان ما بين تائب يتوب من الزلاّت . .
وتائب يتوب من الغفلات . .
وتائب يتوب من رؤية الحسنات »

فهناك من يتوب من الذنب . . وهناك من لم يذنب ، ولكنه غفل
بعض الغفلة ،فحق عليه أن يتوب . . ! ! وهناك مَن لم يذنب ولم
يغفل . . لكن قد تمر به لحظات رضاً عن نفسه وازدهائه بعبادته . .
فهذا البارُّ أيضاً له توبة تناسب مقامه .

لهذا ، كان للتوبة . كذلك عندهم درجات .

يقول « أبو على الدقاق » :

« إنها التوبة . . والإنابة . . والأوبة . . »

فالذين على أول الطريق ، لهم التوبة يتطهرون بها من ذنوبهم التى
تثقل ظهورهم وذكرياتهم .

والذين فى وسطه ، لهم الإنابة ، يتجهون بها إلى الله فى حياة من
التقصير . .

والذين وَصَلوا ، لهم الأَوْبة يخْبِتُونَ بها إلى الله فى غبطة وشوق .

وفريق من « أهل الله » يصل التوبة من الذنب بخشية الله وصلا وثيقا . وفلك كيما يظل مقت التائب لذنبه قائماً يحول بينه وبين مراجعته ، أوحتى الرغبة فى تذكر نشوته الْكاذبة .

فيقول « سهل بن عبد الله » :

« التوبة ألَّا تنسى ذنبك »

وأهل الله . لا ينظرون إلى التوبة باعتبارها مجرد نزوع محمود عن الذنب . . بل هى قبل ذلك وفوق ذلك إعادة صياغة وبناء للإنسان الرَّبانى الفريد . .

يقول « إبراهيم النخعى » رضى الله عنه :

« جلاء القلوب التوبة . . وإنها لتدع قلب التائب
كالسيف النقى المرهَف »

كما أنهم لا ينظرون إلى التائب كرجل مشبوه ، يطارده ماض ينُفر الناس من مصاحبته ومؤاخاته . . لا ، بل « التائب الصادق » عندهم ريحانة من رياحين الله والجنة . . لا يحرصون على مصاحبته فحسب ـ بل ويتقربون إلى الله بهذه المصاحبة . . ويتلمسون عندها رحمة الله . . ! ! هذا « إبراهيم النخعى » مرة أُخرى : يُوصى فيقول :

« جالسوا التوابين . فإنهم أَرق الناس قلوباً . .
ورحمة الله إليهم أَقرب »

* * *

* * *

بل إن « أهل الله » عليهم رضوان الله وسلامه ، ينفذون ببصائرهم إلى

أعماق أبعد ، حين يربطون وجودنا الإنسانى كله بنعمة الله وبإرادته ، وبفضله . .

* * *

وبهذه النظرة الدقيقة والعميقة ، كم من ذنب ، كان اختلاج صاحبه بوقعه ، ثم صدق توبته منه معراجاً إلى كمال روحى تعجز عن بلوغه طاعات كثيرة . . ! !

هذا « ابن عطا الله السكندرى » يعطينا التعبير النهائى لهذه الفلسفة البارّة المبرورة فيقول :

« رُبمافتح لك باب الطاعة ، ولم يَفتح لك باب القبول . .

« وربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً للوُصول » . . ! !

ألاما أروعه ، ثم ما أروعه . . ! !

فأنت قد توفَق للطاعة . . ثم لا يفتح لك باب المثول ، ولا تنمح جوائز الوصول .

وهناك آخرون اعترفوا بذنوبهم ، وقذف بهم تفجُّر الندم الرهيب إلى أعلى ، فإذاهم فجأةً ، وفى مثل لمح البصر ، فى أحضان النعمة والشُهود والقبول . .

ذلك أن الطائع قد يتكل ولو بحسن نية على الثواب المرصود للطاعة . . أما التائب فماذا له . . ؟ ومن له . . ؟ إنه بشعوره وباللاشعور فيه يطرح نفسه عند عتبات رحمة الله الكبير المتعال .

إنه بدموعه وبضراعاته ، وبانتهاله ضعفه الوالغ فى الخطيئة ، وبتجرده التلقائى والحقيقى من حوله ومن قوته إلى حول الله وقوته . .

كل ذلك يجعله من الله جدّ محبوب . . !!

وهم لهذا يعلموننا دائماً حسن اللجوء إلى الله .

هذا « إبراهيم النخعى » يدعو ويعلمنا أن ندعو قائلين :

« رب ، إن نفسى لم ترحمنى فارحمنى »

« رب ، عافنى منها ، وعافها منى »

« رب ، أصلحنى لها ، وأصلحها لى »

وهذا « أبو حازم سلمة بن دينار » يواصل حديث القوم عن فلسفة الذنب ، وفلسفة التوبة ، فيقول :

« إن العبد ليعمل السيئة ، ما عمل حسنة قط أنفع له منها . .

« وإنه ليعمل الحسنة ، ما عمل سيئة قط أضرّ عليه منها » .

ويزيد تفسيرا وتوضيحاً ، فيقول :

« . . وذلك أن العبد يعمل الحسنة فيزهو بها ويتجبر ، ويرى أن له بها فضلا على غيره . . ولعل الله بهذا يحبطها ويحبط معها عملا كثيراً . .

« ويعمل آخر السيئة فتسوءه . . ولعل الله يحدث له بها وجلا ، حتى يلقاه وإن خوفها فى جوفه لباق . . »

كذلك يواصل حديث القوم عن جلال التوبة وبهاء عقباها ، فيقول :

« عند تصحيح الضمائر ، تغفر الكبائر وإذا عزم العبد على ترك الآثام ، أمَّهُ الفتوح . . »

إذا عزم العبد على ترك الآثام ، أمَّهُ الفتوح . . !!!

عبارة جليلة بقدر ما هى صادقة . . فالله البرُّ الكريم لا ينتظر من عبده أكثر من رغبة صادقة فى الاتجاه إليه ، والسعى لمرضاته . .

هنالك تأتيه من كل مكان وتفدُ إليه من كل أُفق معونات الله وفتوحاته .

وعند استقامة النوايا والضمائر ، تتلاشى وتذوب ، وينادى من سماء صافية وحانية :

« لو جئتنى بملءِ الأَرض خطايا لجئتك بملئها مغفرة » ! !

* * *

المطلوب كله ، ندم صادق على مافات . . وتوبة صادقة لما هو آت

يقول « الأَسود بن يزيد النخعى » لأَصحابه وتلامذته :

« تدرون ما الداء ، وما الدواء ، وما الشفاء » ؟

« الداء ، الذنوب

والدواء ، الاستغفار . .

« والشفاء ، التوبة التى لا رجعة فيها ولا نكوص »

وكلما استقام الضمير ، كانت التوبة ناجعة . ليس ذلك فحسب بل

« إن العبد إذا خلصت سريرته ، قال الله : هذا عبدى حقاً »

هكذا قال « مطرف بن عبد الله »

* * *

إننا حين نفقد يقظة الضمير ، نفقد معها ما هو شر من الإثم ومن الخطيئة ، أَلا وهو الاستهانة بهما والاستخفاف بعواقبهما ، فلا يبقى هناك

معنا أثارة من ندم تجعلنا على الأقل عارفين الخير من الشروالإسم من الطاعة . . كما تجعلنا موصولين ولو بسبب واه مع إرادة الرجوع والتصحيح .

وكذا نقارف الخطايا فرحين ولا مُبالين .

ثم ماذا تكون العاقبة ؟ . .

يقول « بكر بن عبد الله المزنى » :

« من يأتى الخطيئة وهو يضحك دخل النار وهو يبكى »

وهو مصير عادل . . إذ لا يستوى من يغلبه ضعفه وهواه فيأتى الذنب وهو مُفزع ممرور . . ومن يأتيه جسوراً ، سادراً ، جذلان .

إن الاستهانة بعواقب الذنوب ، ذنب أخطر من الذنب ، لأنها ـ كما يراها أهل الله ـ تجاوز العصيان إلى التحدى ، لا سيما إذا تضمنت الزهو بالخطيئة والإصرار على غشيانها . . ومن هنا كانت خطيئة السر آمل فى الرحمة وأقرب إلى المغفرة من خطيئة الجهر والعلن . . شريطة أن تنجو من سلوك التبجح والإصرار . .

* * *

* * *

وإضافة إلى خطر الذنب على صاحبه ، أيًا مَا تكن صفة هذا الذنب ، فإن الجهر به ينقله إلى مرحلة أخرى من مراحل الخطر . تلك التى يعبر عنها « بلال بن سعيد » فيقول :

« إن الخطيئة إذا أُخفيت لم تضرَّ إلا أهلها وإذا أعلنتْ ، ولم تغيَّر ، ضرت العامَّة »

* * *

ويعود « أهل الله » إلى التذكير برحمة الله ، والتبشير بعفوه ، وذلك شأنهم دائماً حين يعالجون أزْمة السلوك الإنسانى فلنصغ إلى هذه الكلمات الحلوة البارّة يحدث بها « بلال بن سعيد » أيضاً :

« إن لكم رباً ، ليس إلى عقاب أحدكم بمُسارع . .
يُقيل العثرة ، ويقبل التوبة . . يُثيب المقبل إليه ،
ويُشفق على المدبر عنه . . . »

والحق أن فلسفتهم هذه تجاه الإنسان وخطاياه لتتمّ عن أدبهم الرفيع تجاه الله ، وليس فقط عن رفقهم الحانى بالإنسان .

ذلك أنهم يقدرون الله حق قدره ، ويدركون كم ، نحن حتى بطاعتنا عاجزون عن أداءِ شيء ـ أى شيءٍ من حقه وشكره . فالتقصير والقصور . هما شيمة الإنسان تجاه مالله عليه من فضل ونعمة . .

من أجل ذلك ، كان « أهل الله » أكثر الناس قلقاً من أعمالهم الصالحة مخافة أن يَكلهم الله إليها ، فلا تفى بشكر نعمة واحدة من نعمه عليهم . . وكانوا كذلك أكثر الناس حتى العصاة منهم فرَقاً من مساءَلة الله وحسابه .

ولعل أمتع وأجمع تعبير عن هذه الحقيقة نجده فى ذلك الابتهال الذى كان يردده « أبو عمران الجوانى » :

« اللهم اغفر لنا علمك فينا » . . ! !

وبهذه المشاعر الذكية ـ أيضاً ـ كانوا يفرقون بين أن يكون المؤمن صالحاً . . وأن يجعله الله صالحاً . .

فأن يكون صالحاً . أمر يرجع إلى جهاده واجتهاده الذى هو عرضة

مـ٤

للخطإ والزلل . . وربما التوقف أو النكوص . .

أما أن يجعله الله صالحا ، فأمر مرجعه إلى توفيق الله واصطناعه .

« واصْطَنَعْتك لنفسى »

من أَجل هذا ، كان دعاءُ « مالك بن دينار » :

« اللهم أَنت أَصلحت الصالحين ، فاجْعَلنا صالحين » . . ! !

* * * *

* * * *

و « وأهل الله » إنما يعدون الأَنفس بالخضوع ويطهرونها بالتوبة ، لكى تحمل تبعات وجودها ممثلة فى الحياة الطيبة التى ترعرعها الأَعمال الصالحة والسلوك الفاضل المستقيم .

والعبادة عندهم شرف لصاحبها ، وإعلان لجدارته بأَن يكون إنساناً ، فليس بين رذائل البشر ما يمثل سفالة الروح ونذالة النفس مثل الغدر بالنعمة وعضّ اليد المبسوطة بالمعروف والجميل .

ونعم الله على عباده زرافات ووحداناً أَوضح من الوضوح ذاته ، وتحدّى إرادته ، والتصامُم عن ندائه غدر بنعمته وكفران بفضله ، والذى لا يستطيع أَن يرى نعم الله عليه ، ولا يقدر على حفظ جميلها ، لن يرى أَية نعمة أُخرى يسديها إليه الناس ، وهو بالتالى أَعجز عن أن يحفظ لمخلوق جميلا .

لذلك ، فأَهمية العبادة عند « أَولياء الله » أَنها تمثل أَوضح ملامح الإنسانية فى الأَنسان ـ الوفاء . .

والذى لا وفاء له لربه ، إنسان ضاعت منه إنسانيته فى زحمة الظلمات يقول « يزيد الرقاشى » .

«أَلا تحمد مَن تعطيه فانيا ، فيعطيك باقياً ؟ درهم يفنى ، بعشرة تبقى إلى سبعمائة ضعف . . . .

« أما لله عندك مكافأة . . ؟ يطعمك . . ويسقيك ويكفيك . . ويحفظك فى ليلك ونهارك . . ويجيبك فى ضراتك . ؟ ! »

ولقد سئل « الجُنيد » عن الشكر فقال :

« أَلاَّ يُستعان بشيءٍ من نعم الله على معصيته » .

فشكر الله عندهم ليس ذلك الترداد العفوى لكلمات الحمد ، بل هو العمل الصالح الذى يبرهن به العبد على وفائه للنعمة وولائه للمنعم . .

يقول « أبو حازم سلمة بن دينار » :

« مَثل من يشكر الله بلسانه ولا يشكره بطاعته ، كمثل رجل له كساء أخذ بأطرافه ، ولم يكسُ به جميع جسمه . . فهل يقيه ذلك من حر أو من برد » . . ؟ !

من أجل هذا ، ولأن العبادة تحية شكر يؤديها العبد لربه فى تقصير وحياءٍ أشد ـ كان لابد أن تجىء كريمة نقية ـ يرجو بها صاحبها وجه الله فى تحرُّر من الغرض العاجل . .

أجل ، إن العبادة تزكو عند ربنا . وينتشر عبيرها حين تكون قربى لا صفقة يحاول العبد المساومة بها وعليها من أجل نفع رخيص .

وهكذا يحملهم أدبهم مع الله وحياؤهم منه ، عَلى أن ينظروا إلى العبادة .

يقول « زين العابدين ـ على بن الحسين » رضى الله عنه :

« إن قوماً أعبدوا الله رهبة من العذاب فتلك عبادة العبيد . .

« وقوماً عبدوه رغبة فى غرض ، فتلك عبادة التجار .
« وقوماً عبدوه امتثالا وشكراً فتلك عبادة الأحرار . . ! ! »

ليس معنى ذلك أنهم يغمطون قدر من يعبد الله ويثابر على طاعته سواء كان حافز العبادة الرهبة أو الرغبة . . إنما معناه أنهم يضعون المقياس المثالى للعبادة ، والذى يجب أن يُناط ببلوغه كل جهد المؤمن وجهاده .

ذلك أن أهل الله بقدر ما كانوا يحرصون على أن يكونوا فى الدنيا شُعثاً ، غُبراً ، مجهولين . فقد كانوا فى طاعة الله يتنافسون على الذُرى ، ويتزاحمون حول القمم . . ! !

هذا « جابر بن زيد » يوصى فيقول :

« إذا جئت يوم الجمعة فقف على باب المسجد ، وقل : اللهم اجعلنى اليوم أوجَه من توجّه إليك ، وأقرب من تقرّب إليك ، وأنجح من دعاك وطلب منك » . . ! ! !

إنك لن تجد منهم واحداً يسأل الله أن يجعله أوجه أهل الدنيا بل كان دعاء أكثرهم أن يجعله الله خامل الذكر بين الناس . . ! !

أما فى مقام العبودية والعبادة . . فهناك السباق على أشده والتنافُس إلى أقصى مداه . . وهناك الإلحاح على الله من كل وَلىّ له وعبد صالح أن يرزقه أوجه العبادات وأسمى الطاعات . . !

* * *

و« أهل الله » رضى الله عنهم أجمعين ، إنما يبدأ العمل الصالح عندهم من نقطة هى أبعد ما تكون عن العمل . وفى نفس الوقت أقرب

ما تكون إليه وألصقُ ما تكون به . بل هى صميمه وجوهره وأعصابه . .
تلكم هى : النيّة .
النيّة روح العمل . . وعمل بغير نية ، جسد بغير روح .
يقول « إبراهيم النخعى » :
« فواتح التقوى ، حسن النية . . وخواتيمها ، التوفيق »
كما يقول:
« من أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته » .
فالنيّة هى عبادة السّريرة ، وهى مفتاح العمل ونوره .
ولقد كان اهتمامهم بها ، وعكوفهم على تحبيرها أمراً يفوق اهتمامهم بالعمل ذاته . بل لقد بلغ الأمر ببعضهم أنه حتى عند إلقاء الموعظة أو النصيحة لم يكن يحرك شفتيه إلا إذا كانت هناك نية صالحة ترسل الكلمات فى طريقها ؛
ها هو ذا يُسأل ذات يوم أن يعظ الناس ، فيصمت قليلا ، كمن يستفتى قلبه . ثم يعتذر قائلا :
« لا تحضرنى نِيّة » ! !!
وتبدأ النيّة الصالحة بتجرد العبد من حوله وقوته ملتمساً توفيق الله مخلصاً له الدين .
من أجل هذا كان « سعيد بن جُبير » دائب الدعاء :
« اللهم إنى أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك . . »
ويقول « يحيى بن أبى كثير » :
« تعلموا النية ، فإنها أبلغ من العمل » !

فالنيَّة إذن فَن عظيم . . ولقد كان لهذا الفن من بين الأَولياء المعلمين أساتذة يلقنون أتباعهم أُصوله ، ويعلمون مريديهم وتلامذتهم كيف يُثرون أعمالهم بالنيَّات الصالحة إثراء عظيماً . . وحين تتبع آثارهم وأخبارهم ترى عجباً ، حيث تبصر الكثيرين منهم لم يكونوا يهمون بإنجاز عمل مَا حتى يحشدوا له نيَات كثيرة قد تبلغ الأَربعين والخمسين . . وهكذا ينتهى أحدهم من عمله الواحد وقد كُتب له عند الله أعمال كُثر بعدد نواياه . .

ولقد تَعَلَّمُوا ماللنية الصالحة من قَدْر من قول الله سبحانه :

« وما أُمِرو إلا ليعبدوا الله مُخلصين له الدين »

أدركوا أنهم لم يؤمروا بالعبادة فحسب . بل بالعبادة المترعة بالإخلاص لله والتجرد له . . والإخلاص ليس عملا . إنما هو روح كل عمل . . والنيَة الطيبة الصالحة هى مظهره ومخبره .

كذلك تعلَّموه من قول الرسول الكريم :

« إنمـا الأعمال بـالنيات ، وإنمـا لكل امـرئ ما نوى . . »

فهناك لم يدَع الرسول عليه الصلاة والسلام أى شك فى أن النيَات هى كل شيء فى الأَعمال الصالحة ، وزاد القضية وضوحاً وجلاء حين فَصّل القول فقال :

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله .

« ومن كانت هجرته إلى دنيايصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فهناك قوم مهاجرون . . مسافرون فى رحلة واحدة ، وفى قافلة واحدة . ومع ذلك فقد يكون بين أَحدهم وآخر من التفاوت فى المنزلة عند الله كما بين السماءِ والأَرض بعداً . . ولماذا . . ؟ بسبب النيّة وحدها .

إن الهجرة ـ مجرد الهجرة ـ لم ترفعهم إلى مكانة المهاجر إِلى الله إلا بقدر ما فيها من نيّة التوجه إلى الله والإخلاص له .

وهنا نلتقى بـ « مالك بن أَنس » رضى الله عنه يقول :

« إن لمن يسجد لله ، ومن يسجد للصنم صورة واحدة
فى سجودهما . ومع ذلك ، فالأول عابد ، والثانى
كافر . . لقد فرّقت بينهما النيّات » .

ولقد كان من اهتمامهم بالنيّة أَن صنفوا فى فضلها وفى فنها المصنافات ، ولعل كتاب « ابن الحاج » : « المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات » والمسطور فى أَربعة أَجزاء . . لعلّه آية على ما للنيّة فى حياة الإيمان والمؤمنين من شأن وخطر .

يقول « الإمام الغزالى » رضى الله عنه :

« النيّة والعمل ، بهما تمام العبادة »
« فالنية أحد جزأيها . لكنها خير الجزأين » .

ويقول « سالم بن عبد الله » :

« اعلم ، أَن عون الله للعبد بقدر نيته ، فمن ثبتت
نيته ، تم عون الله له . .
« ومن قصرت عنه نيته ، قصر عنه عون الله بقدر
ذلك . . » .

علَام يدل كل هذا الولاءِ للنّيَة عند « أَهل الله » . . . ؟ إنه يدل ـ أَول

ما يدل ـ على أَن أُولئك الأَبرار كانوا أَفذاذاً يتعاملون مع قلب الأشياء . . وليس مع الوهْلة العابرة والسطح المنظور .

ويدل على أنهم كانوا أَساتذة فى فَنّ إثراء الحياة . . ! ! حقاً إن الدِّين الخالص ، وإن عبادة الله الواحد القهار لا يدرك سموهما المجيد إلا من خلال علاقة الأبرار من الناس والمتقين من البشَر بالدين وبالعبادة .

إن النظرة السطحية إلى موقفهم من النوايا وربط الأعمال بها لتحرم صاحبها من اكتشاف الذكاء العميم ، بل النور العظيم الذى كانت تحمله بصائر أَهل الله وأَوليائه . . هؤلاءِ الشعث الغُبْر الأبرار الذين لا تقع عليهم الأعين فى زحام الوجاهة الكاذبة والتبذُّخ الفارغ المغرور . .

فإن كانت الحياة الإنسانية لا تقوم إلا بالعمل الصالح والجادّ والبنّاء ، فإن إثراءَ الحياة بهذا العمل هو أَمثل السُّبُل لإنمائها ودعم تقدمها نحو المصير .

وشحْن الأعمال بالنوايا الطاهرة والفاضلة توسيع غير محدود لمساحة نفعها ونفوذها . . كما أَنها تجريد للعمل ذاته من شوائب الارتكاس وهواتف الانحراف . . ثم إنها صقل رائع لشخصية الإنسان الذى يصدر عنه العمل . . إذ هو بهذه النوايا النظيفة المستقيمة التى تُواكب دوماً أَعماله وحياته ، إنما يجدد باستمرار هواءَ عقله وروحه ، وإنما يستبقى لوجوده كله مُناخاً مُترعاً بكل بواعث العظمة والطهر والاقتدار .

تُرى ، هل هناك ما يمنح الحياة الإنسانية رُشدها ومجدها أكثر من هذا السبيل . . ؟ ؟

وأَليس « أَهل الله » بموقفهم هذا ، إنما يمثلون ذكاء فريدا ويحملون

بصيرة نافذة ، ويقدمون للإنسان وللحياة أمثل الأفكار والمناهج التي تشد أزرهما ، وتؤمن مصيرهما . . ؟ ؟ ! ! !

* * *

إن نوايانا هي شخصياتنا الباطنة ، فالنية النقية الصالحة تدلنا على وجود قلب نقي صالح وراءها ، والعكس قائم . .

واهتمام « أهل الله » بالنوايا إذن يتضمن ، أو يتضمنه اهتمامهم بالقلوب .

يقول « أبو إدريس الخولاني » :

« قلب نقي في ثياب دَنِسَة ، خير من قلب دنس في ثياب نقيَة » ! !

* * *

والعبادة عندهم قوامها الهمة العالية والعزم الرشيد . . ومن ثم كان المثابرون عليها أبراراً .

ذلك أن العقبات أمامها وأمامهم كثيرة وشاقة .

يقول « مالك بن دينار » :

« ما من أعمال البرّ عمل ، إلا ودونه عقبة ، فإن صبر صاحبه أفضت به إلى رَوْح ونعيم . . وإن جزع رجع »

ومن شفافية الفهم والعبارة ، قوله رضى الله عنه : « أفضَتْ به إلى روْح ونعيم » فالعقبة هنا وليس العمل هي التي ستفضي به إلى الرضوان . . لماذا ؟ لأن مكابدته هذه العقبة وعدم الهروب منها والاستسلام لها قد تحوّلت ـ أعنى المكابدة ـ إلى فضيلة أخرى قد تفوق العمل البار الذي كان يهم بإنجازه . . كما أكسبت هذه المكابدة روحه

من الصلابة والصقل والنور ما جعلها نعمة سابغة بعد أن كانت تبدو نقمة صماء وعقبة كَأْداء . . . ! !

ومن عقبات العبادة الكسل والضجر . . و « أَهل الله » ينظرون إلى هاتين الآفتين نظرة كلها حذر وتربُّص ، فهم يدركون من رياضاتهم وتجربتهم كم تنكر الضعف الإنسانى فى الكسل وفى الضجر ، فيقضى بهما على أبهى الأعمال وهى لا تزال بعد فى عمرها الغضّ وأيامها الباكرة .

ويقول « محمد الباقر » الإمام المرضىّ :

« يابنى : إياك والكسل والضجر ، فانهما مفتاح كل شر .

« إنك إذا كسلت ، لم تؤد حقاً . .

« وإذا ضجرت ، لم تصبر على حق » !

أرأيتم عمق الرؤية ، وبعد الفهم ، ودقة التعبير . . ؟

إننا بالكسل ، لانؤدى حقاً ولا واجباً . .

وأننا بالضجر لا نصبر على حق ولا على واجب . .

وهذا أمر يشاهد فى حياة الناس ، حتى بالنسبة للواجبات التى تفىء علينا مغانم عاجلة . . فكيف إذن بالعبادة التى تتطلب التبتّل والصبر الطويل . . ؟

والضجَر فى العبادة ، كثيرا مايكون وليد الوساوس الشيطانية الخبيثة . . فالعابد لا يكاد يبدأ مسيرة عبادته حتى تفور فى نفسه وتموج وتتفجر كل رواسب الهوى وكل إغراءات التثبيط . . .

و « أهل الله » لا يجزعون لهذه الظاهرة . . بل يفرحون بها

ويستبشرون ، لأنها علامة أن كفاحهم الروحى إنما يضرب فى الصميم ، وعلامة على أنهم بدءُوا يكسبون انتصارات حقيقية تغرى بهم وبها ، النفس والشيطان .

هذا هو « العلاء بن زياد » يتحدث :

« إن اللصوص إذا مَرُّوا بالمكان الخرب المهجور ،
لا يلوُون عليه ولا ينظرون إليه . .
« فإذا مرُّوا بالبيت العامر الممتلىء تربصوا به وائتمروا عليه . . » ! !

رائع هو الآخِر ، هذا الأواب القدِّيس فى عمق ذكائه ، وجمال تصويره . .

فاللصوص فعلا لا يَعْبَأون بمكان خرب ليس فيه ما يُسيل لهم لعاب . . وما رسَم لص قط محاولة لاقتحام خرابة مهجورة . إنما هو يخطط ويقرر ويدبر ثم يخاطر ويتسوّر البيوت العامرة بالمغانم والمتاع .

إن قلب المؤمن السائر إلى الله هو ذلك المكان العامر بالمغانم عند كل قوى الشر من نفس وشيطان وإخوان سوء . . ومن ثم فهذه القوى تقف عنده وتحاول اقتحام حماه وتعمل يد التخريب والنهب فيه ، ومن هنا لا ينبغى لصاحبه أن يضجر أو يجزع وييأس .

إن « أهل الله » يهيبون به أن اثبت واصمد واستبشر وامض فى طريقك قُدماً . إن اللصوص ، لصوص الإيمان والخير ، لم يتسوّروا قلبك إلا لأن بداخله كنزاً ثميناً . . هو كل نوايا الهدى ، وخُطة الحياة الجديدة الطاهرة التى تسير بها إلى الله العلى القدير . . ولو كان قلبك خَرباً ، ماوقفوا عنده ، ولا بذلوا أى جهد فى غزوه واقتحامه . .

* * *

ومما يساعد العبد المؤمن على اقتحام هذه العقبات إدراكه جلال مسعاه ونُبل كفاحه .

يقول « مورق العجلى » :

« المستمسك بطاعة الله حين يَجْبُنُ الناس عنها كالكارّ بعد الفارّ » .

أجل . . هذا بطل المعمعة ، ورجُل الرجال . . هذا الذى يقهر إغراءَ النفس وإغراءَ البيئة وإغراءَ الإثم ليقف ولو وحيداً إلى جانب الفضيلة والخير والعمل الصالح .

و « أهل الله » لا ينظرون إلى العمل الصالح باكتراث متواضع بل هم مدركون تماماً لما يتطلبه من جهد جهيد ، وعناءٍ شديد ! .

يقول « إبراهيم بن أدهم » :

« إذا أردت أن تقترب من درجة الصالحين :

* فأغلق باب الراحة ، وافتح باب الجهد . .
* وأغلق باب النوم ، وافتح باب السهر . .
* وأغلق باب الأَمل ، وتأَهب للموت » .

ولم تكن هذه النظرة لِتقاعسهم عن العبادة أو تخوفهم منها . . بل على العكس كانت مشاعرهم تجاهها مشاعر العاشق المشتاق ، وكان ما تتطلبه من جهد هو الذى يأخذ بِأفئدتهم إِليها ، ويُضرم غرامهم بها . فهم عند أول خطوهم على الطريق قد عشقوا الخطر ، وكرسوا أنفسهم له .

وهذا هو ابن النُوبة الجَسور « ذو النون المصرى » يقول فى هذا المعنى الكبير :

« ما هالنى أمر إلا ركبتهُ » . . ! !

كذلك مما يشدّ أزر العابد فى تحدّى تلك العقبات إدراكه الحق بأنه يقاتل فى معركة رابحة لا محالة ، فهو مهما يطل أمد نضاله ضد الهوى والنفس والشيطان فسيتلقى من ربه الكبير المتعال جائزة فوزه وتفوقه . . ويوم يلقى الله سبحانه سيُخلف وراءه كل ما كان ملك يمينه من مال وجاه ودنيا . . وسيصحبه فى يوم زفافه إلى الجنان صديق واحد وفىّ وحميم . . ذلكم هو عمله الصالح الذى عاناه فى الدنيا ثم ربحه واجتناه !

هكذا يحدثنا « عبيد بن عمير » فيقول :

« كان لرجل ثلاثة أخلاء ، نزلت به نازلة فبدأ بأقرب الثلاثة الى نفسه يناشده العون ، فتنكر له وتخلى عنه . .

« ثم ذهب إلى الثانى ، فأمده بقليل من العون ثم تركه . .

« وذهب إلى الثالث ، فهبّ لنجدته وقال له : أنا معك حيث تذهب وأيان تكون . .

« فالأول ، هو المال . . يخلفه الانسان لأهله ولا يتبعه منه شيء . .

« والثانى ، هم الأهل والعشيرة والصحب . . يشيعونه إلى قبره ، ثم يتركونه وحيداً .

« والثالث ، عمله الصالح ، يبقى معه إلى يوم البعث والنشور » ! ! .

هذه الصورة الرامزة الذكية ، هى الحقيقة كاملة . . فليس هناك من أخلاء الدنيا على كثرتهم من يصحبك ويبقى معك سوى عملك . . فهل

يشق جهد ، أو يغلو ثمن أو تعز تضحية لانتقاء هذا الصديق الذى سيكون رفيق أَبَد بأَسره ، وليس رفيق عمر عابر وسريع ؟ ! .

* * *

و« أهل الله » ـ كما ذكرنا ـ يربطون الْعمل بالمثابرة والدأب . .

فمواصلة الْعبادة خير سبيل لشحذ إَرادة الْخير والهدى . .

وإذا كانت الْبطالة فى أعمال الدنيا مفسدة ونقيصة ، فهى فى واجبات الدين وأعمال الآخرة أكثر نُكراً .

يقول « فرقد السبخى » فى حكمة عميقة وتهكم ذكى :

« إنكم تلبسون ثياب الْفراغ والراحة ، قبل أَن تعملوا » . . ! !

وهذا السلوك يرفضه « أَهل الله وأَولياؤُهُ » يرفضونه فكراً وسلوكاً وإن أَبلغ توبيخ يوجه لصاحبه لهو هذه الْعبارة الْبارعة .

وإنا لنرى منهجهم فى الْعبادة والطاعة : فنرى عجباً . .

هذا « حسان بن أَبى سنان » يُسأَل فى مرض موته ، ماذا تشتهى ؟ فيجيب ! !

« ليلة شاتية طويلة أَحيى ما بين طرفيها فى عبادة الله » ! ! . .

وهذا هو « الربيع بن خيثم » يصاب بالفالج ، ولا يستطيع الانتقال إلى المسجد إلى بمشقة بالغة ، وصلاته فى بيته هى رخصة مرضه ، بل ضرورة مرضه . ومعه ذلك يأَبى إلا أَن يخرج إلى المسجد يهادى بين رجلين . ويقول :

« إنى لَأعلم أَن الله يرخص لى بترك الجماعة فى المسجد . . ولكنى أَسمع المؤذن ينادى ، حى على

الْفلاح . . وجدير بمن نُودى إلى الْفلاح أَن يجيب ولو زحفاً . . ولو حَبواً » ! ! . .

ألا رضى الله عنهم ورفع عنده درجاتهم . . هؤلاءِ الذين قدروا الله حق قدره ، وأَحبوه حق حبه ، فلم يقنعوا فى عبادته سبحانه إلا بأَنفس وأَبهى ما تملك الْقدرة الْبشرية من عمل وبذل وإخبات . .

لقد قال « شميط بن عجلان » :

« رأُس مال المؤمن دينه . . لا يخلفه فى الرحال ، ولا يأمن عليه الرجال » .

وهكذا حمل « أهل الله » دينهم فى قلوبهم ، فلم يخلفوه فى رَحل ، ولم يجاملوا فيه أَو يساوموا عليه .

وهم فى مزاولتهم واجبات الدين وطاعة الله ، تتنوع مشاربهم ، ففريق يغار ثم يغار على عبادته فيكتمها ويخفيها ، تحرياً لَأقصى درجات التبتل والإخلاص .

فهذا « منصور بن المعتمر » يقضى ليله أشعث أغبر ، يصلى ويفزع ويبكى ، فإذا أَصبح وطلع النهار كحل عينيه ، ودهن رأُسه ، ولبس أَجمل ثيابه وخرج إلى الناس .

وهذا « الربيع بن خيثم » كان عمله سراً كله ، وإن كان الرجل ليقدم عليه ، وقد نشر المصحف أَمامه يقرأُ منه ، فلا يكاد يبصر الْقادم حتى يغطيه بثوبه . . ! !

وهذا « زين الْعابدين ، على بن الْحسين » كان من أَكثر الناس عطاءً ومع ذلك كان بسبب إمعانه فى إخفاء قُربته وعطائه يرْمى بالبخل ، ولما مات عرف الناس فجأَة أنه كان يقوت مائة بيت وأُسرة فى

المدينة وحدها . . وعرفوا أنه كان يحمل بنفسه وعلى كاهله وظهره أجربة الْخبز ليوزعها فى ظلمة الليل على المساكين . . ! ! !

وتحدث المؤرخون أن ناساً من أَهل المدينة كانوا يعيشون ولا يدرون من أين يأتيهم معاشهم ، ولا يعرفون من هذا الذى يطرق أبوابهم بالليل حاملاً إليهم ما يحتاجون حتى مات « زين الْعابدين ، على بن الْحسين حفيد رسول الله » فلم يعد الطارق يطرق أَبوابهم ولم تعد الْخيرات تحمل فى جنح الليل إليهم . وهكذا قال قائلهم :

« مافقدنا صدقة السر إلا يوم مات على بنُ الحسين » .

* * *

وثمت فريقٌ آخر لا يرى بأساً فى إظْهار عبادته الشامخة وعمله الشاهق ، تحدُّثاً بنعمة الله عليه . وإرساءً لقواعد القدوة الصالحة ، ونشرا لأعلامها :

يقول « ربيعة بن أَبى عبد الرحمن » :

« لقد رأَيت مشيخة بالمدينة وإن لهم لَغرراً وعليهم المعصفر والمورّد . وفى أَيديهم مخاصر ، وفى أكفِّهم أثر الْحناء . ومع ذلك فإن دين أَحدهم أَبعد من الثريا لا تناله رغبة ولا رهبة . . » ! !

وهذا « محمد بن المنكدر » . . يقوم الليل عابداً مصلياً ثم يذكرالله بصوت مرتفع جهير فسئل فى ذلك فقال :

« إن هنالك من يرفعون أَصواتهم بالتواضع والشكوى . .

« وأَنا أَرفع صوتى بالنعمة والشكر » .

ولقد كانوا يتفننون فى أعمالهم الصالحات حتى تخرج فى أبهى صيغة وأحسن تقويم . .

وما نراه نحن مبالغة منهم وتطرفاً ، بل وتعذيباً لأنفسهم وحرمانا لها ، لم يكن فى الحقيقة سوى النزوع الشديد والنبيل لإتقان العمل ، واستفراغ الوسع فى تقديم أروع ما يستطيعون وما يملكون لربهم العلى الأعلى .

هذا « صفوان بن سليم » يقضى الليل فى صلاة وعبادة . . فى الشتاء يتعمد أن يقوم فوق سطح الدار ، وجسده يلقى وخز الزمهرير ، وفى الصيف يصلى ليله فى حجرة مغلقة ، لا تعبرها نسمة ملطفة . . ثم يناجى ربه قائلا .

« . . هذا الْجُهد من صفوان ، وأنت أعلم » ! !

إنه يعتذر إلى الله ، لأنه لا يجد أولا يقدر على وسيلة أشق ، يظهر بها أمام ربه أشعث أغبر مسكيناً ، حارماً نفسه من الراحة ، ساحقاً تحت قدميه كل شهوات النفس وطيبات الْحياة . .

وهذا « الأسود بن يزيد النخعى » يصوم حتى يخضرَّ جسده ويذوى ويحج فى حياته ثمانين حجة ، وكان واحداً من ثمانية من التابعين انتهت إليهم إمامة الزهد . . ومع هذا فهو يبكى فى مرض موته وينتحب ويشفق عليه أهله وصحبه ، فيقول لهم :

« . . ومَن أحق بهذا منى . . والله لو ضمنت المغفرة

من ربى ، لظلَّت تؤرقنى هموم الحياءِ منه . . »

إن كل جهد يبذلون ، وكل معاناة . . وكل تضحية ، وكل ما يأتون من عبادة وتقوى لا يمثل فى فطنتهم ويقينهم أى مستوى مما يرجون ويطمعون أن يتقربوا به إلى الله من عمل . . ! ! ذلك أنهم يحملون

هِمماً جَسورة عالية ، يزيد من قوتها واقتدارها وحسن توفيقها أنها تحيا في الخير وتعمل له .

وصدق « يزيد الرقاشي » :

« للأبرار همم تبلغهم أعمال البر ، وكفاك بهمة دعتك إلى خير خيراً . . »

و « أهل الله » لا يعبدون الله اعتباطاً ، ولا يمارسون العمل الصالح عن جهالة . . لا ، بل إنهم ليقدسون المعرفة والْعلم والْحكمة ويسعون إليها جميعاً بنفس الْقدر الذى يقدسون به الْعبادة والطاعة .

يقول « ميمون بن مهران » :

« الْعلماءُ هم ضالتى فى كل بلد . . ولقد وجدت صلاح قلبى فى مجالسة الْعلماءِ » .

ذلك أنه بغير علم لا تكون ثمة عبادة صحيحة ، بل إن خشية الله وهى روح الْعبادة ، وجوهر السلوك لأوليِاءِ الله . . هذه الْخشية نفسها ، لا يعرفها حق المعرفة ولا يقدر عليها تمام الْقدرة سوى الْعلماء . وإنهم ليفهمون تماماً ما تعنيه الآية الْقرآنية الْكريمة :

« إنما يخشى الله من عباده الْعلماءُ »

يقول « قتادة بن دعامة »:

« باب واحد من الْعلم يحفظه الرجل ، يبتغى به صلاح نفسه وصلاح الناس أفضل من عبادة حوْل كامل . . »

وهنا يكشف لنا « قتادة » عن قيمة الْعلم فى حياة الْعابد . . كما يوضح نوع الْعلم الذى عنه يتحدثون . .

فهو ليس ذلك الترف الذهني الذى يتخذه أصحابه وسيلة ليكسبوا به صلَف الْجاه ، أو كثرة المال ، أو مناصب الْحياة . . إنما هو الذى يبتغى

به صاحبه « صلاح نفسه وصلاح الناس » .

« سئل محمد بن المنكدر » عن التقوى ، فقال :

« أن تعمل بطاعة الله ، عَلَى نور من الله » .

فالعلم عندهم ضرورى للتقوى . . وهو نورهم على الطريق ، وزادهم فى السفر . . ومن هنا ، كان تحصيله وإخلاص النية فى تحصيله من صميم العبادة والتقوى ، وهذا يحتم التماسه من مصادره القويمة من أجل الوصول إلى أهدى طرائق العبادة والعمل الصالح . . أى أن يكون المرجوّ به وجه الله وحده . .

يقول « ميمون بن مهران » :

« إن فيمن يبتغى هذا العلم مَن يتخذه بضاعة يلتمس بها الدنيا ، ومنهم من يلتمسه ليشار إليه ، ومنهم من يلتمسه لِيُمَارِى به ويجادل . . وخيرهم من يتعلمه لله » . .

من أجل هذا كانوا يخافون الكلام حتى فى العلم والبرّ ، مخافة أن تستدرجهم حلاوة الحديث إلى الزهو أو الرياءِ

يقول « سعيد بن فيروز » :

« لأنْ أكون فى قوم أتعلَّم منهم ، أحب إلَى من أن أكون فى قوم أُعلمهم » . . ! !

ويقول « محمد بن المنكدر » :

« إن المتكلم يخاف مقت الله ، وإن المستمع يرجو رحمته » .

بل لقد بلغ بهم الأمر أن جعلوا من الكلام والصمت قضية شغلت تفكيرهم . فمنهم من يوصى بالصمت إلا فى الضرورات ، مُستهدين

بوصية الرسول عليه صلاة الله وسلامه :

« أَمسك عليك لسانك »

وقوله عليه السلام :

« وهل يكُبُّ الناسِ فى النار على مَناخِرهم إلاَّ حصائد أَلسنتهم » . . ؟ !

ومنهم من يحضُ على الْحديث ما دام دعوة إلى خير ، وما دام صاحبه لايُرائى به ولا يكذب .

يقول « أَبو عبد الله بن أَبى زكريا » :

« طلبت تعلُّم الْكلام فأَدركت منه ما أُريد وطلبتُ تعلُّم الصمت ، فشقَّ علّى ذلك » ! !

هو ـ إذن ـ كما نرى من أَنصار الصمت الْحكيم الذى أَحبه « أَهل الله » ليكون سبيلهم إلى التفكير والتدَبُّر ، وسبيلهم إلى الارتفاع عن شبهات اللغو والزهو والافتتان .

إن « أَهل الله » مشغولون بالتحدث مع الله على طريقتهم . . فصمتهم ليس خَواءً . . بل هو عامر ممتلىء بأَذكى التأَمُّلات الْباطنة فى دين الله ودنيا الناس .

ومع تعدُّد وجهات نظرهم فى هذه الْقضية ، جاءَ منهم من اكتشف الوحدة الْكامنة فى التعدد الماثل . .

ذلكم هو « بشر بن الْحارث » الذى قال :

« إذا أَعجبك الْكلام ، فاصمُت وإذا أَعجبك الصمت ، فتكلم . . »

أَجل . . فالمقصود كله أَلا يكون حديثك ، كما هو صمتك ، تعبيراً عن هوى مفتون ، ونيَّة غير صالحة .

* * *

إن العلم عندهم هو ذلك النور يهديهم إلى خير ما يحب الله لعباده من فضيلة وتقوى

من أجل ذلك . فالعلم الذى ينشدون يتضمن القدوة السامقة والصالحة

يقول « شميط بن عجلان »

« يعمد أحدهم فيقرأ القرآن . ويطلب العلم . حتى إذا علمه أخذ الدنيا فضمها إلى صدره وحملها على رأسه . فنظر إليه جهلة العامة . فقالوا : هذا أعلم بالله منا . فلو لم ير فى الدنيا ذخيرة ما أقبل عليها . فيتهالكون كما تهالك . فمثله كمثل الذين قال الله عنهم : « ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم »

إن وظيفة العلم عند « أهل الله » أن يدل الإنسان على الله . ويرشده إلى طريق التقوى . ويصاحبه فى رحلة الكمال الروحى حتى يلتقى الله . فما لم يثمر العلم التقوى والورع والحياة الصالحة . فلن يكون إذن سوى لغو فارغ

يقول « زياد بن جرير الأسلمى »

« ما فقه قوم لم يبلغوا التقى »

ويرى « أهل الله » أن العلم ليس سلاحاً ضد الجهل وحده . بل وضد الهوى قبلا . وهنا الدور الإيجابى والفعال للعلم والمعرفة

يقول « مالك بن دينار » :

« لا تطلع شمس يوم إلا ويتنازع الإنسان علمه وهواه .

« فيوم يغلب العلم الهوى فذلك يوم غنمه . ويوم يغلب الهوى العلم . فذلك يوم غرمه » ! !

إن « أهل الله » ينظرون للعلم ، وللفقه خاصة كقانون للعبادة ومنهج لها .. وكل سائر إلى الله ومعه نور الْفقه والْعلم حَرِىٌّ أن يبلغ المرفأ ويعانق الْغاية .

يقول « محمد بن كعب الْقرظى » :

« إذا أراد الله بعبد خيراً رزقه خلالاً ثلاثا : فقهاً فى الدين ، وزهادة فى الدنيا ، وبَصَراً بعيوبه » .

ويحدد « عطاء بن أبى رباح » مشاهد الْعبادة وذِكْر الله عز وجل ، بمجالس الْعلم والْفقه ، فيقول :

« من جلس مجلس ذِكْر كَفَّر الله عنه مجالس السوءِ .

« قيل : وما مجالس الذكر .. ؟ قال : مجالس الْعلم . تعرفون بها الْحلال والحرام ، وتعرفون : كيف تصلُّون ، وكيف تصومون ، وكيف تتعاملون »

لكنهم حريصون فى نفس الْوقت ، ولنفس السبب ، ألّا يتحول الْفقه والعلم إلى قضايا جافّة أو مجرد ثراء ذهنى . بل لا بد له أن يظل قائماً بوظيفته فى هداية السلوك وإعلاء الروح .

يقول « عمرو بن قيس الملائى » :

« حديث يُرقق قلبى ، وأتبلَّغ به إلى ربى أَحبُّ إلى من خمسين قضية من قضايا شُرَيح » ! !

لقد كان « شُريح » فقيهاً كبيراً . كما كان من الْعابدين الصالحين .. ومع ذلك ، فقد اختاره « عمرو بن قيس » مثلا لا تعريضاً به ، بل مبالغة فى التحذير من الْفقه الذى يتعلمه الناس ليكونوا مجرد فقهاء لاَمِعين .. وعلماء مبرزين ..

ويتقدم « أبو مسلم الْخولانى » ليقول لنا :

العلماء ثلاثة :

* « عالم عاش بعلمه وعاش الناس معه . .

* « وعالم عاش بعلمه ، ولم يعش الناس معه . .

* « وعالم عاش الناس بعلمه وأهلك نفسه » .

وبهذا يحدد « أهل الله » دور العلماءِ ـ أن يحيوا بالعلم ويحيا الناس معهم به . .

أما حياتهم بالعلم ، فبأن يكونوا صورة صادقة وكاملة لما يهدى إليه العلم من صلاح ونور .

وعندئذ ، عليهم أن يطرحوه على الناس ، ليحيا الآخرون به ، مثل حياتهم بالقدوة الصالحة التى يرفعها لهم علماؤهم العاملون الأبرار . .

ولم يحرم « أهل الله » سعةَ الأُفق قَطّ . . فإن معهم من نور البصيرة وثراء التجربة ، وسماحة الروح ما يجعلهم أكثر الناس حظاً من حسن التقدير ، ورحابة التصوُّر .

فالعالم عندهم ، مطالب بأن يحقق علمه فى حياته وسلوكه ، ثم يعلمه الناس ويُعينهم على تحقيق ما عملوا فى حياتهم وسلوكهم . .

بيد أنهم يدركون فى نفس الوقت أنه إذا عجز الإنسان عن اكتساب فضيلة وكان قادراً على دعوة الآخرين إليها ممن قد يقدرون بعلمه على اكتساب ما عجز هو عن اكتسابه بعمله ، فليس له أن يسكت . . إنما عليه البلاغ . .

وهم فى هذا ، آخذون بقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« رُبَّ مُبلَّغ ، هو أوعَى من سامع »

يقول « يزيد الرقاشى » :

« خذوا الكلمة الطيبة ممن قالها ، وإن لم يُوَفق للعمل

بها ، فإنَّ الله تعالى وصف عباده المحسنين بأنهم :
« يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

فكلمات العلم الطيبة الهادية ، خليقة بالحرص عليها وعلى فرصها المواتية دونما نظر إلى مَصدرها .

فـ « الحكمة ضالة المؤمن ، أنىَّ وجدَها أخذها »

والإنسان الذى يعرف أكثر من الآخرين ، ويملك قدرة على إبلاغ الخير للناس ودعوتهم إليه ، واجب عليه أن ينهض بهذا العمل حتى وإن قعد به ضعفه عن فعل ما يدعو إليه . وفلسفة « أهل الله » فى ذلك أن الحقيقة والفضيلة أكبر من أن يحجبهما عن الناس ضعف الداعى . كما أن انتظار الإنسان الكامل الذى لا أخطاءَ له ، لكى يقدم للناس الحق والخير ـ انتظار سوف يطول ويطول مُضيعاً على الناس الكثير من فرص الانتفاع بالحق وبالخير .

هذا إمام من أئمتهم الكبار « عمر بن عبد العزيز » يقول :

« لو أن كل امرىء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يُلزم بذلك نفسه ، لما كان هناك أمر بالمعروف ولا نهى عن المنكر . .

« ولقلّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة »

وهذا « سعيد بن جُبير » يقرر نفس المبدإ فيقول :

« لو كان المرءُ لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ، حتى لا يكون فيه شىءٌ ، ما أمَر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر »

ويُعقب « الإمام مالك » على كلمات « سعيد » فيقول :

« صدَق سعيد . .

« فأين هذا الذى ليس فيه شىء » ؟ !

وإذا كان العلم عندهم ضرورة لكى يتابعوا سيرهم إلى الله على بصيرة وهُدى . . فهذا العلم وهذا الفقه لا بد أن يتركزا على كتاب الله وسنة رسوله . .

إن حياة التصوف وطريق التبتُّل مليئان بالمفجآت والإغراءات ، وما لم يكن مع السّالك نور قوى لا يخبو . . وما لم يكن معه دليل لا يضل ، فإن رحلته قد تنتهى إلى غاية هى أبعد ما تكون عن الهدف الذى شمَّر له ونهض إليه . والنور والدليل هما : كتاب الله وسنة رسوله . .

فكل علم وكل فقه ، يحدثهم بعيدا عن الكتاب والسنة ، لا يمكن أن يكون العلم أو الفقه الذى يوصلهم إلى الله .

يقول « إبراهيم التيمى » مبتهلا إلى الله سبحانه :

« اللهم اعصمنى بكتابك ، وبسنة نبيك من اختلاف فى الحق ، ومن اتباع للهوى ، ومن سُبُل الضلالة ، ومن شبهات الأمور ، ومن الزيغ واللبْس والخصومة . . »

من كل هذه الآفات التى تعترض طريق السائر إلى الله ، والتى رددها فى دعائه ، لا عاصم سوى كتاب الله وسنة نبيه . .

من أجل هذا ، كان فقْدُ العالم العامل بالكتاب وبالسنة خسارة لا تطاق . يقول « أيوب السختيانى » :

« إنه ليبلغنى موت الرجل من أهل السنة فكأنما أفقد بعض أعضائى » ! !

ويوصى « أبو العالية » صحبه فيقول :

« تعلَّموا القرآن ، فإذا تعلمتوه فلا ترغبوا عنه . .

« وعليكم بالإسلام ، فإنه الصراط المستقيم . .

« ولا تحرفوا الصراط يميناً ولا شمالا . . وعليكم بسنة نبيكم ﷺ »

ويصيح « مالك بن دينار » قائلا :

« ياحملَة القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم . . ؟ ؟

« إن القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الأرض » . .

فالقرآن هو الذى يهدى قلب المؤمن ، وهو الذى يرعرع روحه ، وهو الذى يهزّ حياته الفاضلة بالخصوبة ، ويُفعمها بالنور ، وهو الذى يُؤلق أشواق السائرين إلى الله ، ويجعلها دائمة التحليق نحو الملأ الأعلى

يقول « مالك بن دينار » :

« إن الصدِّيقين إذا قرىء عليهم القرآن طارت قلوبهم شوقاً إلى الآخرة »

ويقول « قتادة بن دعامة » :

« القرآن بستان العارفين »

* * *

ومن أذكى لَفتاتهم فى علاقتهم بالعلم والمعرفة ، وصيتهم ألا يكتفى المريد بعالم واحد يأخذ منه ويتلقى عنه ، فالخير للإنسان أن يستكثر من معلميه ماداموا من ذلك الطراز الذى يسير على نور من ربه .

يقول « أيوب السختيانى » :

« إنك لا تبصر خطأ معلمك حتى تجالس غيره . . فجالس العلماء وجالس الناس . . »

والعلم عند « أهل الله » ليس مسألة تحصيل . بل محاولة لرؤية الحقيقة من داخلها . .

وكل تحصيل للعلم ومناقشة للمعرفة إنما يتوصَّل بهما للعلم الحقيقى الذى يشاهدون به الله فى آثار رحمته وجلال قدرته .

يقول « أبو القاسم القشيرى » رضى الله عنه :

« هناك علم اليقين . . وعين اليقين . . وحق اليقين . . »

« فعلم اليقين لأرباب العقول . . وعين اليقين لأصحاب العلوم . . وحق اليقين لأصحاب المعارف . . »

ومَن أصحاب المعارف . . ؟ إنهم « أهل الله » الذين أضيئت عقولهم وقلوبهم بنور من الله .

أجل إن العلم نورهم على الطريق ، ودليلهم إلى الله ، وعصمتهم من الانحراف والزلل . . ولكنه فوق ذَلك ، القوة التى تشحذ فيهم البصيرة التى يطالعون بها قلب الأشياء . .

إنهم بالمجاهدة الصادقة وبالتعليم الحق ، يمتلكون هذه الحاسّة النادرة والباهرة التى تمكنهم من رؤية الحكمة المستسِرّة فى الأعماق البعيدة الغائرة لبحار المعرفة ومفاوز السلوك . .

وإنهم ليتعبدون ويتعلمون ، ثم يتعبدون ويتعلمون حتى تجىء الساعة المباركة التى يجنون فيها أولى بركات جهادهم فيمتلكون البصيرة التى تجعلهم يرون ما لا يرى الناس ، ويعرفون ما لا يعرف الناس . .

يقول « الربيع بن أبى راشد » فى ابتهاله إلى ربه :

« اللهم اجعلنى ممن يعقل عنك »

كم هى عميقة وبالغة الدلالة ، هذه العبارة المبتهلة . . فأن يبلغ المرءُ الدرجة التى « يَعقِل » فيها عن « الله » إنه إذن لذو حظ عظيم .

ولقد سئل « عطاء بن رباح » :

« ما أفضل ما أعطى العباد . . ؟ فقال : الفهم عن الله عزّ وجلّ »

فأن يَعقل الإنسان المؤمن عن الله ويفهم ، يعنى أنه صار قادراً على أن يتعامل لا مع الأشياء ، بل مع جوهرها وقلبها . . ويعنى أنه قد صار « عبداً ربَّانياً » يرى بنور الله ويضرب بيده . . ! !

و« أهل الله » لأنهم بلغوا هذه المنزلة رأيناهم يتحررون من عبادة الأشكال وعبادة النصوص . .

وعلينا - إذن - حين نرى أحدهم لا يعبأ بالشكل ، ولا يقف عند ظاهر النص ألَّا نرد تفسير ذلك إلى جنوح وتطرف . . بل إلى تلك النعمة الكبرى التى معهم - « نعمة » البصيرة والفهم عن الله . .

على أنهم فى مقامهم هذا وبموقفهم هذا ، لا يتمردون أبداً على العلم بمصادره المعروفة ، ولا ينفصل سلوكهم قيد شعرة عن الخط الذى رسمه القرآن ورسمته السُّنة . . إنما يمارسون التعاليم من خلال تجربتهم التى أثراها عطاء الله ، وزاد من إدراكها نورُه . .

ولهذا ، فإنّ « بصيرتهم » هذه تعمل بحرية مُلتزمة ، ولكن إلى أبعاد لا تكادُ ترى لها حدود . .

وهذا يفسرُ - فيما يفسر - سبب التفاوت الذى نلحظه فى أذواقهم وأعمالهم . .

فبينما يؤثر بعضهم التقشف والشظف ، يؤثر البعض الآخر التمتع المباح بطيبات الحياة . .

ويفضل بعضهم مثلا إخفاءَ العبادة ، ويؤثر بعضهم إعلانها . .

يقول « بكر بن عبد الله المُزنى » :

« لأن أعافَى فأَشكر خير من أن أُبتلى ، فأَصبر »

ولكن إلى جواره ، نجد آخرين يفضلون البلاءَ ليطهرهم ويصهرهم . . ثم آخرين ، لا يفضلون هذا ولا ذاك . . لأَنهم لا يختارون لأَنفسهم . . وإنما يختارون ويؤثرون ما يختاره لهم الله رب العالمين ، وهذا حوار جرى من اثنين من « أَهل الله » هما « هرم بن حيان » و « عبد الله بن عامر »

كانا يؤمان الحجاز معاً . . وخلال السفر وقد بلغا من الطريق أرضاً مشجرة ، أخذت راحلتاهما تخالجان أوراق الشجر ، فقال هرم لابن عامر :

— أتحب أنك شجرة كهذه ، وتنجو من الحساب والعقاب . . ؟

قال ابن عامر :

— لا والله ، فإنى لأرجو من رحمة الله ما هو أوسع من ذلك .

قال هرم :

— أمَّا أنا ، فقد وددت لو أنى شجرة من هذا الشجر ، تأكلنى هذه الراحلة ثم تقذفنى بعراً ، ولا أكابد الحساب يوم القيامة .

— ويحك يا ابن عامر . . إنى أخاف الداهية الكبرى . . ! !

فهذان رجلان من الأبرار يختلف اتجاههما النفسى . فينزع أحدهما

إلى الرجاءِ فى رحمة الله نزوعا لا ينسيه قطعا مشاعر التوقير لحساب الله . . وينزع الآخر إلى الخوف الشديد من الله . دون أن ينسى أيضاً أن الله كتب على نفسه الرحمة .

ولكنهما معاً فى هذا التبايُن لم يذهبا بعيداً عن كتاب الله ولا عن سنة رسوله ولا عن العلم الحق الذى منه ينهلون .

فمنهجهم مختلف ، ولكنه فى الحقيقة متفق . . ومتعدد ، لكنه فى الحقيقة واحد . .

يقول « داود بن أبى هند القارى » :

« إذا أُخذت بالذى أُجمعوا عليه ، لم يضرّك الذى اختلفوا فيه »

وهى قاعدة ذهبية لا تهدى بنورها السائر فقط فى دروب « أَهل الله » والماخِرَ عُباب عالمهم . . بل هى كذلك « وَصْفَة » بارعة فى مجال الفقه ، وعالم الفقهاءِ . . هذا العالَم الممتلىء بوجهات نظر لا تؤذِن بانتهاء . . ! !

ولأنهم أُوتوا نعمة « الفهم » عن الله عز وجل ، فقد تفوقوا على كل المتاهات الكلامية التى لم يخرج الجدل منها بطائل عبر مئات السنين .

فمسئلة « القدر » مثلا . ماذا خرج به العقل الإنسانى خلال معارك الجدل والكلام التى استمرت قروناً ، ولا تزال . . ؟ ـ لا شىء أَبداً . .

أما أُولئك الذين يطالعون قلب الأشياء ، فقد فهموا روح النصوص التى تناولت القدر فى القرآن وفى السنة . . فهموا روح النص ، وسمعوا نبضه الوثيق ، وعبّروا عن القضية كلها بكلمات تناهت فى اليُسر ، لكن ليس يفوقها ولا يغنى غناءها أىُّ من تلك الفلسفات التى لا يؤذن حديثها بانتهاء . .

يقول « المنذر بن مالك » :

« ينتهى القدر إلى هذه الآية : « إن ربّك فعّال لما يريد » ! ! »

أجل . . فى قلب هذه الآية الكريمة كل قضية القدَر ، لمن ينظر إليها كوجه من وجوه الايمان . . لا كمشكلة من مشاكل الفلسفة ، وموضوع لاستعراض قدرة الذكاء الإنسانى على الجدل والحوار . .

فأن يكون الانسان « مُسَيراً » أو « مُخيّراً » أو « هما معاً » فإن ذلك كله لن ينفى أن الانسان ليس إلا شيئاً من أشياء الله وخلقاً من خلقه . . وأن الأمر كله ، والملك كله لله الواحد القهار ، وأن أعظم مخلوقاته ، سواء كان الإنسان أو غيره ، يفعل أحياناً مالا يريد ، ويريد أحياناً مالا يستطيع أن يفعل .

أما الله ، فهو ـ وحده ـ الفعّال لما يريد . . ! ! !

أجل . صدق « المنذر بن مالك » وصدق معه « أهل الله العارفون » فعند هذه الآية الكريمة ينتهى القدر وعندها يبدأ الفهم الصحيح لقضيته . .

فليبذل أهل الأرض جميعاً كل جهودهم لإشقاء إنسان يريد الله إسعاده . فالنتيجة معروفة ولا شك فيها ، تؤكدها الآية الفاصلة « إن ربك فعّال لما يريد » . . ! !

وليبذل الطب كل معجزاته لإنقاذ حياةٍ من الموت ، قد جاء عند الله أجلها . فالمصير معروف « إن ربك فعّال لما يريد » . . ! !

هذا هو الذى يعنى المؤمنين فهمه من القدر . بل وهذه هى روح قضية القدر أدركها الذين « فهموا » عن الله ، والذين أوتوا « البصيرة » التى تنفذ فى مثل لمح البصر إلى « قلب الأشياء » وليس إلى أشكالها الباهتة

وهذا الفهم عن الله . أفاء على « أهل الله » تلك النعمة التى تخصصوا فيها وعُرفوا بها ـ نعمة الزهد والورع ـ .

لقد كان موقفهم من مناعم الحياة ، بل ومن ضروراتها ، مثار العجب والحديث الطويل من الذين عُنوا بدراسة تاريخهم .

ولقد بهروا الدنيا بطريقة استغنائهم عنها وزهدهم فيها .

لقد كانوا يرفعون أبصارهم نحو أسهم القريب فيرون طائفة كبيرة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد أجادوا فن الزهد فى الدنيا والترفع عن إغرائها ، فصمموا على أن يتبعوهم على نفس الطريق .

يقول « الحسن البصرى » :

« والله ، لقد أدركت سبعين بدْريا ـ ممن شهدوا غزوة بدر ـ أكثر لباسهم الصوف .

« لو رأيتموهم لقلتم : مجانين . .

« ولو رآكم خيارهم لقالوا : ما لهؤلا من خَلاق . .

« ولو رأوا شراركم لقالوا : ما يؤمن هؤلا بيوم الحساب .

« ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه .

« يمسى أحدهم ، وما يملك إلا قوتاً كفافا ، فيقول : لا أجعل كل هذا فى بطنى ، والله لأجعلن بعضه لله ، ويتصدق ببعضه . . وهو إليه محتاج » !

و « أصحاب رسول الله » و « أهل الله » من بعدهم معذورون فى فزعهم الشديد من الدنيا . . فطالما أنصتوا للقرآن الكريم يحذر منها

وينعتها بدار الغرور . . ثم إن سيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام أمامهم تُريهم كيف كان يقضى الشهرين والثلاثة لا توقد فى بيته نار تطهو طعاماً . . وكيف كان ينام على حشيّة من لوف . . وكيف كان بعد أن فتحت عليهم الدنيا وكثرت مغانمها يحرم نفسه وأحب الناس إليه « فاطمة » بنته وأهل بيته الأقربين من كل نعيم ، مكتفياً منها له ولأهل بيته بالشَّظف والكفاف ! !

ولقد كان فى أصحاب الرسول كذلك من لم يحرم نفسه من طيبات الحياة ما دام يؤدى حق الله فيها ، وما دامت لا تلهيهم عن ذكره وعبادته .

ولقد ورث « أهل الله » كلا الاتجاهين ، وأضفى كل فريق على إتجاهه روح فلسفته وتفكيره . .

بيد أنهم متفقون على ضرورة الحذر منها ، وعدم الثقة بها ، فوظيفتها الحقيقية عندهم ـ أنها المكان والزمان اللذان مُنحهما العبد الصالح ، ليهيّئ من خلالهما لنفسه غداً أبدياً خالداً وصالحاً عند الله رب العالمين . .

أما ما وراءَ ذلك ، فهى أُكذوبة كبرى . . أو هى على أحسن الفروض والأوصاف :

(يقين لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه) ! !

وهم يحاذرونها ، لأنها فى حقيقتها غرور .

يقول « أبو حازم » :

« ما مضى من الدنيا حلم ، وما بقى منها أمانىّ » .

ويمقتونها لأنها فتنة كل تافه ، وبهيمى ، وجشع .

أخذ « مسروق بن عبد الرحمن » ابن أخ له وصعد به كومة عالية كان الناس يتخذون منها ملقى لكناستهم وزبالتهم . . ولما ارتقاها قال له :

« ها هي ذي دنياهم تحت أقدامنا .
« أكلوها ، فأفنَوْها . .
« ولبسوها ، فأبْلوها . .
« وركبوها ، فأنضوها . .
« سفكوا من أجلها دماءهم ، واستحلوا فيها محارمهم ، وقطعوا فيها أرحامهم »

أجل . . إن المنافسة حولها قاتلة وغير شريفة . . والإنسان في زحامها المجنون يدوس أخاه ويسحق رفيقه كي يصل قَبله ويأخذ أكثر منه . . ! !

يقول « أبو حازم » متهكماً وساخراً :

« لا تكاد تمد يدك لشيء منها - أي الدنيا - إلا وجدت آخرين قد سبقوك إليه » ! !

ويصف « شميط بن عجلان » عشّاقها فيقول :

« حيارى ، سكارى ، عشقوها ولم يفطموا أنفسهم عن رضاعها .
« إذا أحدث الله لأحدهم نعمة تمطّى رياءً وسُمعة ونادى في الناس : أن تَعالَوْا وانظروا . .
« دائم البِطنة ، قليل الفِطنة . . يقول متى أصبح فآكل وأشرب . . وألهو وألعب »
« ومتى أمسى فأنام . .
« جيفة بالليل . . بطّال بالنهار ! ! !

□□□

ولقد تفرّغ « أهل الله » لعبادة الله سبحانه . . فكيف يثقلون ظهورهم

ولو بالمناعم والطيبات . . وأنّى يكون لهم فى غير مرضاة الله شغل . . ؟

وقع حريق كبير بالبصرة ذات يوم ، وعصف الهلع بالناس . . أمّا « مالك بن دينار » فقد أخذ بطرف ردائه ومشى فى شوارعها لا يلوى على شئ وهو يقول :

« هَلكَ أصحاب الأثقال »

وهو رمز جميل وصادق للذين يستكثرون من الدنيا بغير قناعة أو تعقل ، وينسون أن لكل كثير شواغله وهمومه وثمنه الفادح ، وأحياناً المهين .

وعندهم أن من دلائل العصمة التى يهبها الله عباده الصدّيقين ، أن تَضِنّ عليهم الدنيا بحاجاتها . . أو بتعبير أصدق وأصح ، يَضنُّون هم عَلى الدنيا برغباتهم فيها ومنها .

يقول « إبراهيم النخعى » :

« إن من العصمة أن تطلب الشئ من الدنيا فلا تجده » .

هذا ، لمن يطلبون . . أما « أهل الله » فلطالما شهدت ساحات الدنيا صراع الجبابرة يجرى بينهم وبينها . . هى تريدهم ، وتطاردهم بكل ما فيها من بهر وإغراء . . وهم يزودونها عن ورعهم ودينهم وتقواهم ومصيرهم المذخور لهم عن الله بكل ما فى عزماتهم الشاهقة من بأس وعنفوان وإنهم ليرددون كلمات أخ لهم كبير ، هو « أُويْس القُرَنى » فى غبطة وحُبور :

« إن بين أيدينا عقبة كئوداً ، لا يُجاوزها إلا كل ضامر ومُخِف . . فأَخِفّ يرحمك الله » ! !

إن « أهل الله » لا يبكون على دنيا . . ويرون فى ترك الحرص عليها والعدو وراءها تصرفاً بديهياً ، ومنطقياً مع أبجديات الإيمان .

يقول « أبو حازم » :

« وجدت الدنيا شيئين . . شيئاً لى ، وشيئاً لغيرى »

« فأما الذى لغيرى ، فلو طلبته بكل حِيَل الأرض ما وصلت إليه .

« وكذلك الذى لى ، لن يستطع أحد أن يناله منى » .

هى إذن عندهم لا يُجدى معها الحرص حتى لو أرادها الحريص ، لأن الأَرزاق فيها مُقدّرة ، ولا سبيل لك إلى ما قُسم لغيرك . . وكذلك لا سبيل لغيرك إلى ما قسم لك .

من أجل هذا كان المشغولون بها في عذاب . . من وجدها ، ومن فقدها . .

يقول « شميط بن عجلان » :

اثنان معذبان فى الدنيا :

« رجل أُعطِى الدنيا ، فهو مشغول بها . .

« وفقير زُويت عنه ، فنفسه تتقطع عليها حسرات » .

ويعود « أبو حازم » فيقول :

« نعمة الله فيما زُوِىَ عنى من الدنيا ، لا تقل عن نعمته علىّ فيما أَعطانى منها .

« إنى رأيته أعطاها قوماً ، فهلكوا » .

ورأى « أبى حازم » هذا يمثل مُلتقى الاتجاهات جميعاً حول موقف « أهل الله » من الدنيا . . فكل ما ينالهم من حلالها نعمة ، وكل مالم ينلهم نعمة لا تقل فى استحقاقها الشكر عن النعمة الأولى . . ثم هم إذا

خيروا بين الإكثار فيها والإقلال منها ، اختاروا الإقلال ، لأنهم لم يجدو له صرعى . . في حين أن صَرعْى الإكثار كثيرون . . ! ! وإنهم ليلفتون أنظار الناس إلى إحدى حقائق الدنيا ، ليقلَّ تهالكهم عليها .

يقول « أبو حازم » :

« ما في الدنيا شيء يسرك ، إلا وألْصِقَ به شيء يَسوءك » . .

ألا إن كل إنسان قادر على أن يحصى مئات الشواهد من حياته ومن حياة الناس على صدق هذه الحكمة .

وإذاً فطلب الازدياد من الدنيا حماقة ، لأنها في نفس الوقت إزدياد من المتاعب والسوءِ .

من أجل هذا يرى « أهل الله » في الذين أوتوا نعمة القناعة والزهد الملوك الحقيقيين في الدنيا .

يقول « مالك بن دينار » :

« كن ملكاً في الدنيا والآخرة . .

« إزهد في الدنيا ، تكن كذلك »

ويقول « محمد بن كعب القرظي » :

« أشقى الناس بها أرغبهم فيها ، وأسعدهم بها أزهدهم فيها . .

« هي المعذبة لمن أطاعها ، المهلكة لمن اتبعها ، الغادرة بمن انقادَ لَها . .

« زيادتها نقصان . . وأيامها دُوَل » ! ! !

□□□

ولماذا يحرص « أهل الله » على الدنيا . .

أمن أجل أن يكونوا أثرياءَ . . ؟

هــا هم أولاءِ يتحــدثــون على لســان أحــدهم « مســروق ابن عبد الرحمن » :

إنى لأسعد ما أكون حالا حين يقول الخادم : ليس

فى البيت قفيز ولا درهم » . .

أم لكى يتركوا ثروة لأبنائهم وذرياتهم . . ؟

ها هو ذا « إبراهيم النخعى » يجيئه أكثر من عشرين ألف درهم ، فيتصدق بها جميعاً . . فيقال له : لو ادخرت منها لولدك ، فيقول :

« لقد ادَّخرتها لنفسى وادَّخرت الله لولدى » ! !

ولقد استجاب الله لحسن ظنه به ويقينه . . فلم يكن فى الناس يومئذ أكثر ثراء وسعادة من أولاده . .

أم يريدونها ليتقوا بها الحاجة ويستعينوا بها على طاعة الله . . ؟

أجل . . هنا لا غير يذكرون حاجتهم إلى الدنيا . . أو على الأصح علاقتهم بالدنيا . . فهم لا يريدون منها سوى لُقيمات تُقْمن الصُلب . . وثوب يستر الجسد . . وهو قدر لا يجعل للدنيا أى ذكرى فى تفكيرهم ، ولا فى أحلامهم .

ثم إن نعم الدنيا لا تتمثل فقط فى المال ولا فى أطايب الطعام والشراب واللباس . .

إن نعم الله على الناس لأجلُّ من أن تحصَى وتحمد . . وإذا كان حمقنا وطمعنا وجهلنا يستر عنا تلك النعم ، فلم نَعد نراها إلا فى مائدة عامرة ، أو ثياب فاخرة . أو جيوب منتفخة بالأموال ، فإن « أهل الله » يرونها حيث هى تملأ وجودنا وحياتنا ، وتنادى العين التى ترى . . والأذن التى تسمع . . والقلب الذى يفقه . .

هذا « يونس بن عبيد » يقصده رجل شاكياً فقره وحاله ، فيسأله « يونس » :

* « أيسرك أن يذهب بصرك وتُعطى مائة ألف » ؟

يقول الرجل : لا

* « أيسرك أن يذهب سمعك ، وتعطى مائة ألف » ؟

قال الرجل : لا

* « أيسرك أن تذهب يداك ورجلاك وتعطى مائة ألف » ؟

قال الرجل : لا

* « أيسرك أن يذهب عقلك ولسانك وتعطى مائة ألف » ؟

قال الرجل : لا

وهنا ضحك « يونس » وقال للرجل :

« أنظر ـ إذن ـ كم معك من مئات الألوف وأنت تشكو الحاجة » . . ! !

بعض الناس يرون فى مثل هذه الكلمات مجرد عَزاء . . وإنهم لمساكين واهمون . . فهذا الذى قاله « يونس بن عبيد » هو عين الحقيقة ولُباب اليقين .

فالعافية نعمة . . بل هى ثروة . . بل هى رصيد فعلى ومادى كهذا الذى يُودعه الأثرياء فى المصارف والبنوك أو أكثر . . فلماذا لا نرى هذه النعمة أبداً . . ولا نشكر الله عليها نحن الغافلين الجاحِدين . . ؟ ؟

هل نِعم الحياة هى المال فقط . . ؟ والمنصب فقط . . والجاه فقط . ؟ إذن فنحن لا نراها إلا من خلال جهالتنا وصَغارنا . . ! !

أجل . . لا نراها إلا مالا ومنصباً ، وجاهاً ، لأن هذه الثلاثة هى التى تتيح لغرورنا ولهوان نفوسنا وغاياتنا أن تتبختر وتختال ، طامعة فى أن تخرق الأرض وتبلغ الجبال طولا . . ! !

لذلك نرى « أهل الله » بموقفهم من الدنيا ومن المال ، وبإدراكهم المضىء الباهر لهذه القضية كلها يرتفعون فوق كل مستويات الذكاء الإنسانى ويعانقون الحقيقة فى قلب النهار . . !

□□□

إنهم يريدون للناس أن يكونوا أحيَاءَ الدنيا لا ضحاياها . . وسادة المال لا عبيده . .

والسبيل لذلك أن يأخذوا المال من حله . وينفقوه فى حله . . وأن يقنع كل بما يكفيه ، ولا يطمح إلى ما يُطغيه . .

يقول « ميمون بن مهران » :

« لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد مما يحاسب شريكه . . وحتى يعلم من أين مَطْعَمه ، وملبسه ، ومشربه - من حلالٍ ذلك أم من حرام » . .

ولكى يعيش الإنسان على الحلال مطمئناً ، لابد أن يبتعد لا عن الحرام . . بل عن تُخوم الحلال المجاورة للحرام . .

يقول « ميمون بن مهران » أيضا :

« لا يسلم الحلال لأحد ، حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال » .

كلمات تتفجر ذكاءً ونوراً . . وتضعنا أمام « الورع » وجهاً لوجه . . فكثير ما نحسب أن الورع ترف فى الفضائل . . لا ، إن « أهل الله »

يعلموننا أنه « ضرورة » لا « ترف » ، فأنت لا تتوقى النار بحاجز النار نفسها ، بل بحاجز من الأرض بعيد عنها . وكذلك المال الحرام لا يُتوَقى إلا بجزء كبير من الحلال يحول بينك وبين مُواقعة الحرام . وهذا هو « الوَرَع » . .

والورَع عندهم أمر واضح ويسير .

يقول « يونس بن عبيد » :

« لا شيء أيسر عليّ من الورع »

« إذا رَابني شيء تركته »

إنه يشير بهذا إلى ما علمهم رسول الله :

« دَعْ ما يريبك ، إلى مالا يريبك »

فعندما نسمع أن أحد أولئك الأبرار رفض مثلا أن يسدّ جوعه بواحدة من البسر أسقطها الريح على الأرض ، لأن صاحب النخلة لم يأذن له ، فلا نسمى هذا بجهلنا ما تعودنا أن نسميه . . بل نصفه بنعته الحقيقى . وهو الورع . .

إن « أهل الله » يقيسون الأمور بالتحليل النهائى لها ، ولنطالع هذ النبأ : يقول « مالك بن دينار » :

« خرج جابر بن زيد ـ وهو من إخوان مالك فى الله ـ يوماً فمر بحليقة ، فاحتوشته كلابها ، فأخذ قصبة من حائط وجعل يطرد بها الكلاب ، ولما وصل إلى داره قال لأهله : احفظوا بهذه القصبة حتى أردها غداً إلى مكانها .

« فقالوا : سبحان الله يا أبا الشعثاء ، ما يبلغ الأمر بقصبة ؟ . .

« فقال : لو أن كل من مرَّ بهذا الحائط أخذ منه قصبة ما بقى منه شىء » ! ! . .

وهكذا ، لم يكن ورعهم سذاجة ، بل كان حكمة وعمق تفكير . .

كان « أبو حازم سلمة بن دينار » يقول :

« قد رضيت من أحدكم أن يحافظ على دينه ، كما يحافظ على نعله » !

فنحن فى الطريق نتوقى الوحل ونتحاماه حتى لا يصيب نعالنا . وإذا أصابها لم نصبر على تلوثها ، بل نسارع الى تنظيفها وتلميعها . . ألا ما أوجع كلمة « أبى حازم » ؟ إن لها لمثل وخز السهام ! ! .

إن اتقاءَهم بَعض الْحلال إذن لم يكن تطرفاً . بل كان ضرورة حتى لا يواقعوا الحرام . . لا سيما حين يفشو الْكسب الْحرام ويملأ الْجيوب والْبطون .

يقول « شقيق بن سلمة » :

« إن أهل بيت يضعون على مائدتهم رغيفاً حلالاً ، لأهل بيت غرباء » . . ! !

والْورع عندهم ليس فضيلة فحسب . . بل واجباً مفروضاً . . لَأن معناه ـ لا سيما عند فساد الذمم ـ ترك الْكسب الْحرام ، فهل ترك الْكسب الْحرام نافلة ؟ . .

إنه واجب ولزام . . ولو أن كل إنسان يأخذ حقه لا غير ، ويترك لَلآخرين حقوقهم ، لتاهَ الْفقر فى زحام الْكفاية والْغنى .

يقول « ميمون بن مهران » :

« لو تعاهد كل إنسان كسبه ، فلم يأخذ إلا طيباً . .

ثم أَدَّى حق الله فيه ما احتيج إلى الْأغنياءِ ، ولا احتاج الْفقراء » . . ! !

ففلسفتهم الْحكيمة والْعميقة عن المال والثروة تضع كلتا عينيها على « إنسانية الإنسان » ـ هذه التى لا يستعبدها شىء كما يستعبدها المال ـ رغبة فيه ، وتهالكاً دونه ، وحرصاً عليه .

وإنسانية الإنسان تنتصر فى معركتها مع المال فى نظر « أَهل الله » إذا سعى الإنسان إليه برفق وأَمانة وشرف ، وأَدى حق الله فيه لذوى الْقربى والْفقراء والمساكين ، وأَسهم به فى إرباءِ المنفعة الاجتماعية وإسعاد الناس . . وبعد ذلك فلينعم ذو المال بماله فى غير سرف ولا مَخيلة .

قيل لـ « مالك بن دينار » إنك تغلظ على الناس فى طعامهم ولباسهم فقال :

« اكتسبوا حلالاً . . ثم الْبسوا ما شئتم . » .

ويقول « يونس بن عبيد » :

« إنما هما درهمان :

* درهم أَمسكْتَ عنه حتى طابَ فأَخذته

* ودرهم وجب فيه حق الله ، فأَديته » .

إن حرصهم لَشديد على أَن يجئَ المال من حلال ، فلا انتهاب ولا اختلاس ، ولا سرقة ، ولا غش ، ولا احتيال . . ثم ينفق فى حلال بادئا بحقوق الله التى لن ينال الله منها شيئاً ، إنما يذهب نفعها للمحتاجين ويبقى ثوابها للمنفقين .

ثم لا تكون ـ أَى الْأموال ـ أَداة للسَّرَف والترف ، لَأن الله لا يحب المسرفين ولا المترفين . . كما لا يكون محرضاً على الشح ، لَأن الله يمقت الْبخلاءَ الْأشحاءَ .

يقول « ميمون » بن مهران » :

« فى المال ثلاثة حقوق ، إن نجا صاحبه من واحد ، خيف عليه من اثنين ، وإن نجا من اثنين ، خِيفَ عليه من الثالث . .

* «أن يكون طيباً . فأيكم الذى يسلم كسبه من حرام أو شبهة . . ؟

* « وأن يُؤدَّى حق الله فيه . .

* « وأن يُنفق فى قصد ، فلا سرف ولا تقتير » . ! !

ولكى تبقى « إنسانية الانسان » لا بد أن يكون سعينا للمال ـ كما قلنا ـ سعياً رفيقاً ، وأن تكون وسائلنا كريمة شريفة .

وذلك لا يتيسر إلا لمن راض نفسه على الْقناعة ، وزانها بالورع وأدرك ـ كما سمعنا ـ لأهل الله من قبل أن كل كثرة فى المال وزيادة فى الدنيا ، إنما تحمل معها كثرة فى الْهموم ، وزيادة فى الْمخاطر .

هذا فى دنيا الناس الْفانية . . أما يوم الْقيامة فالْحساب شديد والْعقبة كئود .

من أجل هذا يرفض « أهل الله » أن يكونوا ضحايا الْكثير .

يقول « يزيد التيمى » :

« قدمت الْبصرة ، فربحت فيها عشرين أَلْفاً فما اكترثت بها . . وما أريد أن أعود إليها ، بعد أن سمعت أبا ذر يقول : إن صَاحب الدرهم يوم الْقيامة ، أَخف حساباً من صاحب الدرهمين . . ! ! »

هذا مثال اخترناه من بين عشرات الأمثلة والمواقف ، لأن صاحبه لم يكن فقيراً ، فهو يتعزى عن فقره . . بل هو تاجر ناجح ، كسب فى

رحلة واحدة عشرين ألفا . فما اكترث لها ، ولا بطر بها . .

بل لقد أثارت في نفسه الحنين إلى الربح القليل المتواضع .. لأن صاحب الدرهم . أخف حسابا يوم القيامة من صاحب الدرهمين وصاحب الدرهمين . أخف حسابا من صاحب الثلاثة . .

من اجل هذا . كان أشد ما يأخذون على الناس تهالكهم على المال يقول « شميط بن عجلان » .

« قد أعطيت ما يكفيك وأنت تطلب
ما يطغيك .. ! ! » .

و « أهل الله » لا يكترثون بالمال . لأنهم لا يخشون الفاقة .. أولا : لأن إيمانهم بالله الخالق الرازق يملأ افئدتهم باليقين .. وثانيا : لأن حاجاتهم فى الحياة يغطيها أقل شىء . .

سُئل « حسان بن أبى سنان » .

« أما تحدثك نفسك بخوف الفاقة .. ؟

فقال : نعم ..

قيل : فبأى شىء تردها .. ؟ قال : أقول لها : لو أصابتك الفاقة غدا . فستأخذين المسحاة ، وتعملين مع الفعلة ، فتكسبين دانقا أو دانقين تعيشين بهما ..

ثم تعملين وتعيشين .. وتعملين وتعيشين .. فتسكن وتهدأ » .

هذا « معلم » يعلمنا ألا نفتح على أنفسنا أبواب الحياة فلا نجد بعد ذلك ـ مهما يزد ثراؤنا ـ ما يشبع طمعنا وطموحنا .. يعلمنا ألا نستسلم لهلع النفس الجائعة المسعورة التى تحملق دائماً لا فى الكفاية بل فى المزيد . تلو المزيد

و « أهل الله » بهذا لا يكرهون للناس الثراءَ المشروع ولا الرفاهية الشاكرة . .

يقول « عمرو الْقارىء » :

« كانوا يعدون الْغنى والسَّعَة عوْناً على الدين »

ويقول « إبراهيم النخعى » :

« من أحسن الله صورته ، ووسَّع رزقه ، وبوّأه منصباً صالحاً . . ثم أدى حق الله فى كل هذا وتواضع ، كان من خاصَّة أهل الله » . !

أرأيتم . . ؟

هنا هيئة جميلة ، ورزق واسع ، ومنصب مُتَبوَّأ . . ومع ذلك فإن صاحب هذا كله ليس مقبولا فحسب . بل من خاصَّة أهل الله . لأنه عرف كيف يشكر ربه ويتواضع لعباده . .

وهكذا يقول « أبو قلابة » :

« لن تضرّك دنيا ، أَدَّيْت شكرها لله عز وجل » .

بل لننظر هذه الْواقعة المعّبرة :

رأى أبو قلابة أحد أصحابه يشترى تمراً رديئا ، فقال له :

« لقد كنت أظن أن الله نفعك بمجالسنا أما علمتَ أن الله نزع من كل ردىء بركته ؟ ! »

أهناك أذكى وأبهى من هذه الْكلمات فى هذا المقام ، يقولها رجل متصوف زاهد . . ؟ !

هاهم أولاء فى زهدهم وورعهم ، يرفضون الردىءَ ، لأن المؤمن طيب وهو أحق الناس بالطيبات . . ! !

المشكلة إذن ـ هى فى علاقاتنا بالمال وبالدنيا . .

وبتَلَوّنِ هذه العلاقات وخضوعها لتيارات كثيرة متناقضة ـ تتغير نظرة « أهل الله » إلى الموضوع وتتعدد آراؤُهم وتوجيهاتهم .

وإنا لنراهم فى نظرتهم الواقعية للمال يذهبون فى حسن الانتفاع به مذهباً بعيداً .

فهذا « محمد بن كعب القرظى » يقول :

« التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل » .

إذن فهم يباركون حتى الادخار والقصد . .

إن مع « أهل الله » من الفطنة ما يعرفون به ويدركون حاجة الناس لوسائل العيش والحياة .

فيقول « نافع بن جبير » :

« إنك من أهل الدنيا مادمت فيها . . ولا غنى لأهل الدنيا عما يُصلحهم »

بل لنطالع هذين النصَّين لقطب من أقطابهم هو « سعيد بن المسيب » رضى الله عنهم أجمعين .

يقول أولا :

« إن الدنيا نَذْلَة ، وهى إلى كل نذل أمْيَل . . وأَنْذَلُ منها مَن أخذها بغير حقها ، وطلبها لغير وجهها ، ووضعها فى غير سبيلها » . . ! !

ثم يقول مرة أخرى :

« لا خير فيمن لا يحب هذا المال ليصل به رَحمه ، ويؤدى أمانته . . ويستغنى به عن الناس » .

كما كان يشير إلى أمواله » ويقول :

« أصون بها دينى وَحَسَبى »

فالدنيا النذلة ـ كما وصفها سعيد ـ والتى هى إلى كل نذل أميل . . إنما تكون كذلك وَفْق الْغَرَض الذى نتوخاه منها والْحافز الذى يدفعنا ويسوقنا إليها ، وَوَفْق الوسيلة التى نتوسّل بها .

وهكذا نراها فى صورتها الأُخرى ليست نذلة ولا إلى كل نذل أَمْيل بل هى فرصة المؤمن الصالحة الطيبة إلى يوم مَعاده وحسن مآبه فما الذى غَير الصورة . . ؟ ؟ إنه نوع الْعلاقة التى تربط الإنسان بدنياه . .

وهكذا لم يعد المال وسيلة نستخدمها فى تأفُّف وضجر . . بل هو عون صالحٌ يُحَبُّ ، شريطة أَن يكون فى مصادره ، وفى مصارفه ، وفى مسيرته كلها كما قال « أَهل الله » مما فصَّلناه خلال الصفحات السالفة من حلال طيب يجىء . . وفى حلال طيب يُنفق . . لانتهَالك على جمعه . . ولا نَبخل به أَو نسرف فيه . . ثم نترك لغيرنا حقه فيه ، فلا نأْخذ منه فوق كفايتنا . .

على أَن « أَهل الله » حين يكون الأَمر متعلقاً بهم ، والمصير مصيرهم ، فإنهم لا يريدون من الدنيا إلا مثل حَسْوِ الطائر .

إن الدنيا ـ ذلك المسرح الْعريض لكل رغبات الناس وشهواتهم وطموحهم ، واجتماعهم وانفضاضهم . . الدنيا بكل أَسواقها الهائجة ومهرجاناتها المائجة ـ لا تعنيهم ولا ينبغى لهم أَن يُحسُّوا لها وجوداً .

وهم يدفعون ثمن ذلك من زهدهم وجهادهم وإخباتهم ، والْعيش مع شظفها ، والتدثُّر بالحرمان منها . يقول « جعفر الصادق » :

« إنما الدنيا للعارفين كَفَىْءِ الظلال » . .

الدنيا كلها ـ مهما يطل الْعمر فيها ـ كلحظات الظل التى يقضيها المسافر تحت أَفنان شجرة ثم يمضى . . فلماذا يشغلون إذن بأَموالها ومتاعها وفتنتها وأَهوائها ؟ ؟ .

إنها فرصتهم لطاعة الله ، ولتقديم الصالحات الْباقيات التى سيحيون فيها إلى جوار الله ، وفى فردوسه الأعلى خالدين مُخلدين . . أَما بعد ذلك ، فلا تعرفهم الدنيا ولا يعرفونها .

يقول « إبراهيم التيمى » :

« تمثلت نفسى فى النار ، أُعالج أغلالها وسعيرها وآكل من زقومها ، وأَشرب من غِسْلِينها . . فقلت يانفسى : أَى شىءٍ تشتهين ؟ قالت : أَرجع إلى الدنيا فأَعمل عملا أَنجو به من هذا العذاب . . ثم تمثلتها فى الْجنة مع حورها ـ أَلْبس من سُنْدُسها ، واستبرقها ، وحريرها ، فقلت يانفسى : أَى شىءٍ تشتهين ؟ قالت : أَرجع إلى الدنيا ، فأَعمل عملا أَزداد به من هذا النعيم . . « فقلت لها : ها أَنتِ ذى فى الدنيا فاعملى » . . ! !

إنهم يرفضون أَن يكون للدنيا فى قلوبهم مكان . . بل فى إحساسهم . . مجرد الإحساس . .

فسلامتهم من إغرائها لا تتمثل فى الزهد فيها والاستغناء عنها . بل فى فقدان الشعور بوجودها .

يقول « أَبو الأبيض » :

« اعلم أَنك لن تسلم من الدنيا ، حتى لا تُبالى من أَكلها من أَحمر أَو أَسود »

إنهم ليسوا أَتقياءَ وحسب ، بإبقائهم الدنيا بعيداً منهم ، بل أَذكياء أَيضاً . .

فأَمامهم آلاف من المشاهد والصور ، لناس كانت الدنيا معهم بالْأمس

تُضمِّخهم بعطرها ، وتغرقهم بخيرها . . وفجأة تولت عنهم إلى غيرهم . وغداً إلى آخرين . . وبعد غد إلى سواهم . .

يقول « محمد الْباقر » :

« الدنيا مثل مال أَصبته فى منامك ، فلما استيقظت لم تجد معك منه شيئاً » .

فلماذا ينخدعون لها ، ويعيشون متوقعين ضرباتها ومفاجآتها ؟ . حسبهم منها ما لايُخلِّف فقدانه الْحسرة والْعذاب .

ولْيضحكوا مع « جابر بن زيد » وهو يحكى غبطة روحه قائلا وكأَنه يشمت فى الدنيا التى لم تستطع اصطياده :

« لا ، ما أَملك من دنياكم إلا نعلين قديمين وحماراً ! ! ! . . . »

وليضحكوا كذلك فى غبطة مع « الْحجاج بن الْفرافصة الْباهلى » الذى يقف فى السوق عند أَصحاب الْفاكهة ، فيُسأَل ما تصنع ؟ فيقول مشيراً إلى الفاكهة :

« أَنظر إلى هذه المقطوعة الممنوعة »

مشيراً بذلك إلى فاكهة الْجنة التى أَعدها الله للمتقين من عباده ، والتى وصفها الْقرآن الْكريم فقال :

« لا مقطوعة ولا ممنوعة »

على أَن لأهل الله صارفاً آخر يصرفهم عن الدنيا بقوة ولا يملكون له دفعاً ـ ذلك هو الموت . .

أَجل . . الموت الذى يعُرّى الدنيا من كل زيفها ، ويضع الإنسان وجهاً لوجه أَمام مصيره فى أَبد لا يفنى ولا يزول . . ينتظره فيه نعيم مقيم . . أَو عذاب عظيم ! ! . .

هنا . لا ينسون من الدنيا متاعها فسحب ، ولا وجودها فسحب ، بل ينسون اسمها . . وهنا لا خيار أبداً ولا ينبغى أن يكون ثمَّ خيار ، حين تكون المفاضلة بين ذلك الشىء الصغير الضئيل التافه الذى يسمى الدنيا ، وبين الآخرة .

فالموت فى آذانهم وفى رُوعهم نذير يصيح : أن استعدوا للرحيل . . إلى أين . . ؟ إلى دار يَحْيَوْن فيها خالدين ، حيث النعيم الْخالد للمتقين والْعذابِ الماحق للمفسدين . .

وما هذه الدار التى نحن فيها إذن . . ؟ هى الدنيا . . ألا يُذكِّركم اسمها بحقيقتها . . ؟ هى دار فانية تقضون فيها أعماراً كأنها لحظات ولماذا جئناها إذن . . ؟ لِيَبْلُوكم ربكم أَيُّكُمْ أحسن عملا . . ! ! !

إذن فعلى هذه الدنيا الْعفاء . . وإذن لن يمنحها « أهل الله » خفقة واحدة من قلوبهم ، ولا بسمة ضاحكة من شفاههم . . وبالتالى فهم لايريدون من متاعها ولا من زينتها شيئاً أى شىء . . ولْتهُب رياح السحر لتحمل منهم تسبيح المسبِّحين ، وأنين الْباكين ، وضراعة الضارعين ، وأنفاس شوقهم المشتاق إلى لقاء الله ورضوانه . !

هكذا رأيناهم يشمون فى كل مظاهر الدنيا رائحة الموت . .

هذا « يزيد الرقاشى » يقول :

« إن سركَ أن تنظر إلى الدنيا بما فيها من ذهب وزينة ،
فهلمَّ أخبرك . .
« شيِّعَ جنازة ميت . . فهذه هى الدنيا بكل ذهبها
وزينتها . .
« واحمل الْقبر دوماً معك . .
« لا أقول : احمل تُربته . . بل احمل فِكرته » !

بالروعة التفكير والتعبير يا شيخنا يزيد . . ! !

ألا ، فلنعد تلاوة عبارته الْحكيمة مرة أخرى :

« واحمل الْقبر دوماً معك . .

« لا أقول : احمل تُربته . . بل احمل فكرته » . .

إنهم بهذا المعنى عاشوا يحملون قبورهم فى كل زمان ومكان . . عاشوا يحملون « فكرة » الْقبر و« فكرة » الموت ، وكان هذا الذى يحملون أعظم حَاجز دفع عنهم طوفان الْحياة الدنيا ، وأحاله تحت أقدامهم إلى فقاقيع . . !

يقول « إبراهيم النخعى » :

« ما من أحد ينزل الموت حق منزلته إلا عدَّ غدا ليس من أجله . .

« كم من مستقبلٍ يوماً ، لا يملكه . . وراجٍ غداً لا يبلغه . .

« ولو تنظرون إلى الأجل وسيره ، لأبغضتم الأمل وغروره » . . ! ! !

وهكذا رأيناهم يعزفون عن كل عمارة تخصهم فى الدنيا . . وكلما دُعوا إلى ذلك قالوا ، كما قال « سليمان التيمى » :

« الأمر أعجل من هذا . . فالموت غداً » !

وهم ينادون المؤمنين كافة ألأ يَدَعُوا الدنيا تنسيهم الآخرة . . . وأولئك الذين يغترفون من طيباتها المباحة المشروعة ، أحق من غيرهم بهذا النذير ، لأن النعم كثيراً ما تنْسى . . . ! !

يقول « إبراهيم التيمى »

« إن مَن كانوا قبلكم فرُّوا من الدنيا وهى مقبلة عليهم .

وإن معهم من التقوى يومئذ ما معهم . .

« وأنتم الْيوم تتبعون الدنيا ، وهى مدبرة عنكم وإن معكم من الْخطايا ما معكم » ! ! !

هذا نذير قيل للناس منذ ألف عام . . تُرى ماذا يقَال لنا الْيوم وأين مكاننا نحن من الْقافلة المزدحمة بألف من الأعوام . . . ؟ !

كذلك يقول « إبراهيم النخعى » : !

« إن الصالحين قبلكم ، كانوا يجعلون للدنيا ما فَضَل عن آخرتهم .

« وإنكم الْيوم تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم » .

□□□

و« أهل الله » إذن بتخطيهم الدنيا الآخرة ليسوا سُذجاً بتخطيهم الدنيا إلى الآخرةِ ليسوا سُذَّجاً ولا مخدوعين . . إنما هم أذكى الناس قاطبة إذا كانت المسألة مفاضلة بين ربح وخسران . . فأرباح الدنيا وهمية مهما تتشامخ طولا وعرضاً . . لأنها عاجلة ، ومتقلبة ، ثم نهايتها موت يُفضى إلى حساب وعذاب . .

أما ربح الآخرة ، فهو الْيقين الذى لايقين مثله ، وهو الربح حقاً . .

وكل شى فى الدنيا يتركه الانسان خوف الْفتنة أو الانشغال به عن طاعة ربه ، سيأخذ أحسن منه مضاعفاً يوم الْخلود .

يقول « الشعبى » :

« ما ترك أحد فى الدنيا شيئاً ، الا أعطاه الله فى الآخرة خيراً منه » . . .

بل إن للفقراء موكبهم فى الْجنة . . ولهم فى الآخرة ثواب يتواءم مع

الْفقر الذى اختاروه فى دنياهم طائعين ، أو رُزِئوا به فصبروا عليه . بل تقبلوه شاكرين . .

يقول « إبراهيم النخعى » .

« يدخل الْفقراء الْجنة قبل الأغنياء . . مَثلهم فى ذلك كمثل سفيتين تمخران الْبحر . . .

« مرت الأولى وليس فيها شىء من متاع ، فقال الآذن بالعبور : خلوا سبيلها . .

« ومرت الأخرى مُثقلة موقرَة ، فقال : احبسوها ، حتى ننظر الذى فيها » ! ! . .

مثل بارع . . وكم كانوا بارعين فى ضرب الأمثال يعلمون بها الناس .

□□□

وهكذا لم تكن علاقتهم بالموت علاقة خوف ورهبة أكثر مما هى علاقة إيلاف ومحبة .

ذلك أن الموت عندهم ليس نهاية ، إنما هو انتقال من دار إلى دار . . ومن عالم إلى عالم . . ومن أهل إلى أهل . .

هذا « أبو حامد الْغزالى » رضى الله عنه يقول :

لا تظنوا الموت موتاً إنه لَحَياة وهو غايات الْمُنى
لا ترعْكم هجمة الموت فما هو إلا الانتقال من هنا

إن الناس فى حياتهم الدنيا ، لا يسرهم أن يتجمدوا عند منزلة واحدة من منازلها .

فالطالب فى المرحلة الثانوية ـ مثلا ـ يجدّ ويجتهد ويدأب لكى ينتقل إلى المرحلة الْجامعية . . وحين يبلغها ، يبذل قصارى جهده لينتهى

منها ، وينتقل إلى ما بعدها فى حياة الْوظيفة والْعمل . . والموظف فى درجة ما يتوق ويتحرق شوقاً إلى الدرجة التى فوقها . . والناس جميعاً ، بل حتى الطيور ، تبحث دائماً عن الْحياة الأفضل ، وتهاجر إلى حيث الرغد والْخصب . .

هذا تبسيط لحقيقة « الموت » . . فما هو إلا الانتقال من هنا . كما قال الامام الْغزالى . .

من أجل هذا ، كان مبعثَ قلق عظيم لأهل الله وأصفيائه ، وكان مناط أشواقهم أيضاً .

إنهم يتذكرون بهاء وعظمة الحياة التى تنتظر المؤمنين بعد مغادرتهم هذه الدنيا فتطير قلوبهم شوقا إليها . .

ثم هم من شدة خشيتهم الله وتوقيرهم اياه يحاذرون أن تقصر بهم أعمالهم ، فيرهبون هذا الانتقال . . ! !

بَيْدَ أن الشعور الأكثر سيطرة على روعهم هو لا ريب الاطمئنان إلى عفو ربهم ورحمته ونعمته ورضوانه .

ومن ثم فهم والموت فى صداقة حميمة ، يحبونه . . . . وينتظرون مقدمه فى حبور وشوق . .

قيل للامام « الْجنيد » ، : إن « أبا سعيد الْخراز » كان يفيض وجْداً عندما حضرته الْوفاة . . فقال :

« ليس بعجيب أن تطير روحه اشتياقاً » ! !

إنهم أصدقاء الموت وعُشاقه ، ما دام الدليل الذى جاء يأخذ بأيديهم إلى ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَر من نعيم الله وعطائه .

يقول « على بن سهل الأصبهانى » :

« أتظنون أنى أموت كما يموت الناس ؟
« إنما أدْعَى . .
« يقال لى : ياعَلّى ، فأجيب » ! !

هذا هو الموت عندهم . . دعوة مّن الملأ الأعلى يسارع المؤمن إلى تلْبيتها جَذلاَنَ ، نَشْوَان . . ! !

ومن عَجب أن « ابن سهل » مات كما تنبأ . . فذات يوم وهو يسير بين نفر من إخوانه ومريديه . . وقف فجأة وصاح : لَبيك . . ثم مال على أكتاف صحبه وفاضَتْ رُوحه . .

أفعجيب إذن أن تُضْجِرَهُم الدنيا ، وأن يضيقوا بها ، ويهربوا منها ويتعجلوا الرحيل عنها ، ما دام أمامهم ومن ورائها ذلك الْخلود المفعم بالمباهج والرضوان . . ! !

تُرى ، ماذا كان موقفهم الْعلى فى الْحياة . . ؟ هؤلاء الذين اتخذوا من الزهد ومن الْورع سفينتهم ، يبحرون بها الى المرافىء الْبعيدة والسعيدة .

هل عاشوا لأنفسهم وحدها ، عاكفين عليها ، مُولِّين ظهورهم للناس ولمشاكلهم . . مُحايدين الْقُوى والأوضاع التى تدفع تيار الْحياة فى الدولة والمجتمع . . ؟ ؟

لقد قهر « أهل الله وأولياؤه » الدنيا ، كما لم يقهرها أحد . .

ولقد صاروا ملوكها حقاً حينما نبذوها وراءهم ظهرياً واتخذوها معبراً لامُستقراً .

وكان موقفهم من إغراء السلطان وصولة السلاطين آيةً ما مثلها آية على عظمة النهج الذى شكل زهدهم فى الدنيا ، وهدى خطواتهم الراسخة فوق أرضها وبين أهليها .

لقد كانوا يرون أنفسهم وهم فى أسمالهم الْبالية فوق كل ملوك الأرض وكبرائها لا صَلفاً أو غطرسة . . بل توقيراً لنعمة الله عليهم وحفظاً لحقها . .

إن الله العلى الْعظيم قد كرمهم فى كتابه أبلغ تكريم . .

لطالما ضمهم إلى جلاله الأعلى وهو يتحدث عنهم فيقول سبحانه :

« أوليائى » . . ! ! !

ماذا فى الدنيا وفى ألْف دنيا مثلها ، من تيجان ، وسلطان ، وثراء وجاه . . لا أقول يعدل . بل يحدث نفسه بالاقتراب من هذا الشرف الأسنى والأسْمى . . ؟ !

صحيح أنهم لم يضعوا أنفسهم قط فى هذا المقام من الْولاية . . وكانوا يرفضون فى قوة كل إطراء لهم بها . . وكان إحساسهم الْجياش بجلال الْحق سبحانه يجعلهم فى أعينهم ضئالا . . لكن برغم هذا كله ، فقد كان تقديسهم للرداء الذى كساهم الله إياه قَميناً بمنحهم ذلك الشعور الْواثق الذى يضع كل مغريات السلطان والمال والدنيا تحت أقدامهم .

ولم يكن حياؤهم الشديد من الله ، وتلاشيهم أمام جلاله ليغير شيئاً من حقيقة أنهم أولياؤه المتقون والمقربون . .

□□□

إن موقفهم من السلطان ومن الْحكام ، ملوكاً أو وُلاة ، يبدأ بالاستغناء المطلق عنهم . . فكل ما بأيديهم من نفوذ ، وجاه ومناصب وأموال . أشياء ودّعها « أهل الله » من زمان بعيد وكبَّروا عليها تكبيرات الموت ، ولم يفقدوا الرغبة فيها وحسب . . بل صارت ذات رائحة كريهة تملأ نفوسهم بالغثيان . .

بل أكثر من ذلك رأينا الْكثير منهم رضى الله عنهم ، لا يهرب من

الوباء الْقاتل الْكاسح حين ينزل بلداً هم فيه . . في حين أن أخبار هروبهم من المناصب الْكبرى التي تُفرض عليهم ومن الْعطايا التي يُرسلها الْحاكمون إليهم ، بل من المودَّة الملحفة التي يعرضها عليهم الأمراءُ . . أقول إن أخبار هروبهم من ذلك كله تزدحم بها كتب التاريخ ، وهم الذين لم يكونوا يهربون من الأوبئة الْفاتكة الماحقة .

واستغناؤهم عن الأمراء وعما في أيديهم يبين لنا ـ كما قلنا من قبل ـ صورة الزهد الذي اختاروه لأنفسهم .

ولنطالع هذا النبأ وبطله « صفوان بن سليم » :

« قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وأمّ مسجدها فرأى في زاوية من المسجد رجلا يصلي ، فَبَهَرَهُ سَمته فسأل عنه ، فقيل له : إنه صفوان بن سليم .

« فأمر تابعه إن يذهب إليه بكيس فيه خمسمائة دينار .

« ووقف التابع بعطاء الْخليفة أمام صفوان وقال له : إن أمير المؤمنين يُرسل إليك هذه .

« فعجب صفوان وقال له : لقد أخطأت يا ولدي لست أنا الذي أرسلك إليه . .

قال التابع : أولست صفوان بن سليم . . ؟ لقد أشار بيده نحوك وسماك لي باسمك ، « قال صفوان . . إذن فاذهب واستوثق منه مرة أُخرى .

« وعاد التابع صوب الْخليفة الْجالس هناك في ركن قصي من المسجد . .

« وعندئذ تسلَّل صفوان من المسجد ، واختفى من المدينة كلها . . ولمْ يظهر بها إلا بعد أن غادرها

الْخليفة سليمان » . . ! !

هذا نبأ يغنى عن أنباء كثيرة ، لنرى كيف ، وإلى أى مدى ، وبأى صدق كانوا يرفضون « الهبات الملكية » ويهربون منها . . ! !

لقد كانوا يرون فى قرع أبواب ذوى السلطان والْحكم نقصا فى الدين لا يكاد يضاهيه نقصان . .

ها هو ذا « جعفر الصادق » رضى الله عنه يقول :

« الْفقهاءُ أُمناءُ الرسل ؛ فإذا رأيتموهم يقرعون أبواب السلاطين فاتهموهم » . .

وهذا « ميمون بن مهران » يقول :

« لا تعرف الأمير . ولا تعرف من يعرفه » .

وهذا « سعيد بن المسيب » يقول :

« لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا وقلوبكم منكرة ؛ حتى لا تحبط أعمالكم . . »

ولكن لماذا يَتوقَوْن الْقرب من الْخلفاءِ والأُمراءِ والْوزراءِ كل هذا التوقِّى ؟ ولماذا يهربون منهم كما لو كانوا ذئاباً ستختطف منهم إيمانَهم ، وتقواهم ؟ .

إن « أبا حازم سلمة بن دينار » رضى الله عنه يعطينا لذلك تفسيرا .

لقد كان « الزهرى » إلى جانب صلاحه وتقواه عالماً كبيراً وفقيهاً ومحدثاً . وكانت له بين الناس مكانة الْعلماءِ الْهُدَاة . . وكان موضع احترام الْخليفة عبد الملك بن مروان ـ ولقد بادله الزهرى هذه المودّة فكان يزوره ويحضر مجالسه . . ولم يشفع صلاحه ولا خلقُه لَدَى « أبى حازم » . وكان الزهرى يُجِلُّهُ إجلالاً كبيراً . . فكتب « أبو حازم » إليه يقول فى رسالة مطولة ، نقتطف منها هذه الْفقرات :

« عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن ، ورحمك من النار ؛ فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عَرفك بها أن يرحمك منها . لقد أثقلتك نعم الله عليك ، بما أصحَّ من بدنك ، وأطال من عمرك ، وفقهك فى دينه .

« اعلم أبا بكر أن أدنى ما ارتكبت وأعظم ما احْتَقَبْت ، أنك آنستَ الظالم ، وسهلت له طريق الْغيّ ، بِدُنُوِّكَ منه حين أُدْنِيت . . وإجابتكَ له حين دُعيت . .

« لقد جعلوك قُطْباً تدور رَحَى باطِلهم عليك ، وجسراً يعبرون عليه إلى ضَلالَتهم وعُلالتهم . .

« يُدخلون بك الشك على الْعلماء ، ويقتادون بك قلوب الْعامّة إليهم . .

« وما تبلغ من نفوسهم مكانةَ أَخَصّ وزرائهم وأقوى أعوانهم إلا بقدر ما تروِّج لفسادهم ، وشوق الْخاصّة والْعامة إليهم . .

« وما أقلّ ما أعطوك فى كثير ما أخذوا منك » . . ! !

بهذه الْكلمات التى تشرح نفسها ولا تحتاج من الإيضاح لمزيد ، يفسر « أبو حازم » موقفهم الصارم من صحبة الْحكام ، بل من مجرد معرفتهم . .

تُرى ، هل يمكن لمن هذا موقفه من زيارة السلاطين والْولاة . أن يقبل ـ ولو بجدع الأنف ـ أن يكون سلطاناً ، أو والياً . . ؟ ؟

لا . . ودون ذلك كل ما بين نواجذ الهول من آلام . . ! ! !

لقد كانوا يُجلدون ، ويُسجنون . ويُنْفَوْن . . مُؤثرين ذلك كله على قبول المناصب التى يتهالك الْحمقى عليها تهالك الذباب .

انظروا . . هذا « ميمون بن مهران » يقول :

« وددتُ أَن إحدى عينى ذهبت وبقيت الأُخرى أبصر بها ، وأَنى لم أتولّ ولاية قط . .

« قيل له : ولا لعمر بن عبدالعزيز »

« قال : ولا لعمر بن عبدالعزيز » !

إنه نادم على بضعة أيام قضاها والياً يمضى على صراط مستقيم ، وأنه يؤثر ذهاب بصره إلا شعاعة تبقى ليبصر بها طريقه بين داره والمسجد ، على أن يكون والياً . . حتى لعمر بن عبدالعزيز . . الذى هو « عمر بن عبدالعزيز » ولا نَزيد . . ! ! !

وهذه صورة أخرى لقدِّيس آخر ، بطلها « أبو وائل شقيق ابن سلمة » . يقول المعلى بن عرفان :

« كنت مع أبى وائل حين جاء رجل فقال له : إن ابنك قد عُيِّن والياً على السوق ، فقال : والله ، لو جئتنى بنبإ موته لكان أحب إلىَّ . .

« لقد كنت أكره أن يدخل بيتى من ولى لهم عملا . . . »

ولقد عُيِّن أحد أبنائه « قاضياً » فقال لخادمه يوصيه [إذا جاءَك ابنى بشىءٍ فلا تقبله منه] . . ! !

كانوا ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ يستطيبُون الْعذاب فى سبيل أَلَّا يُطَوَّقوا بمسئوليات مناصب يعلمون تمام العلم أنهم لن يستطيعوا أن

يرفعوها إلى مستوى ورعِهم وتقواهم . . ومن ثمَّ حقَّ لهم أن يتركوها وينبذوها .

بل ـ وياعجباً ـ لم يكن بعضهم يرى فى هذه التضحية حتى مجرد فضيلة ومَثوبة . . بل كان ينظر للألم الذى يُنزله به تعذيب الطغاة تَذْكِرَةً وذكرى لعذاب النار يوم الْقيامة . . ! ! !

ولندَعَ « الزهرى » يقص علينا هذا النبأ عن « زين الْعابدين على ابن الْحسين » عليه وعلى أبيه وأهله صلاة الله وسلامه . .

لقد كان ـ عبد الملك بن مروان ـ قد استدعاه من المدينة إلى الشام ليقيم بجواره ، ورفض . . فحمله الْحرس بالقوة وأثقلوه بالْحديد ، وقبل رحيلهم به طلب « الزهرى » أن يزوره . . وكانوا يعرفون مكانته عند الْخليفة فأذنوا له . . . ولْنَدَعْهُ يكمل النبأ العجيب ! !

« . . . دخلت عليه وهو فى قُبَّة ، والْقيود فى رجليه ، والْغُلّ فى يديه فَبكيت . . وقلت له : وددت أنى مكانك ولا يصيبك مكروه . .

« فقال لى : يا زهرى . . أتظن هذه السلاسل تَكْربنى . . ؟ أما لو شئْتُ ما كان من ذلك شىء . .

« ثم هزَّ يديه فانفرج الغلّ . . وهز قدميه فتفسَّخ الْقيد . .

« وعاد يقول : ولكن دَعها تُذكرنا عذاب الله » . . ! ! !

هذا القِّديس الأعزل ، يدخل على عبد الملك بن مروان ذات يوم ويمكث معه لحظات ، ثم ينصرف ، فيتنفس الْخليفة الصعداء ويقول لمن حوله :

« والله لقد امتلأ قلبى منه خِيفة » !

ولقد كان من أولئك الأبرار من يرفض تلك المناصب بالْحيلة والدهاءِ ، حتى ينجو من التعذيب الذى يتعرض له الآخرون . .

فهذا « يزيد بن مرثد » أراد الْوليد بن عبدالملك أن يوليه عملا . . ورأى أن قد أُحيط به فماذا يصنع . . ؟ إنه لا يحتمل عذابهم ولا سجونهم . وفى الْحيلة مُتسع للهروب . .

وهكذا جاء بجلدة خروف مدبوغة وكسابها ظهره جاعلا الْجلد على الظهر والصوف خارجه . . وسار فى الطرقات بلا قلنسوة ولا نعل . متظاهراً بالْجنون . حتى نُقِلَتْ أنباء عِلَّتِه هذه إلى الْوليد ، فولَّى غيره . . وبعدها شُفِىَ الشيخ من الْجنون . . . ! !

□□□

وقد يكون وجود الأَمويين على رأس السلطة يومئذ من الأسباب الْقوية لرفض الصالحين من عباد الله ولاية المناصب الْحاكمة .

بيد أن ذلك لا ينفى أبداً وجود ذلك العزوف بل ذلك الرفض للسلطة ـ أيَا مَّا تكن قمة الهرم فيها ـ أموية . . أم عباسية . .

ألم نسمع من قريب قول قائلهم :

« . . ولا لعمر بن عبدالعزيز » . .

ثم لقد كانوا كذلك فى غير عصور الأمويين . .

فلماذا كان ذلك ؟ وبم نفسر الرفض المستمر . . ؟ ؟

ها هى ذى عبارة تفسره بعض الشىء ، يقولها « مكحول الشامى » :

« لأن يُضربَ عنقى ، أحب إلىّ من أن أَلِىَ الْقضاء . . »

« ولأن أَلِىَ الْقضاء ، أحب إلىّ من بيت المال » .

فمن روح هذا الرأى الْحكيم نرى رجلا لا يهرب من المسئولية ، وإنما يهربُ من احتمال الْخطأ فيها .

إنه فى الْقضاء عرضة لأن يخطىء فى حكم أو تلتبس عليه الأمور . . وذلك عنده أمر أهون منه الموت ، حتى وهو يعلم أن من اجتهد وأخطأ فله أجر . . ! !

ولكن إذا لم يكن من الْولاية بُد ، وكان له الْخيار . فالقضاءُ أحب إليه وأيسر عليه من بيت المال . .

والأمر فى هذه المفاضلة راجع إلى تقديره . . والذى يعنينا هنا ما يُفيئه علينا حديثه من تفسير لجزعهم من أن يكونوا وُلاة وحكاماً .

□□□

وهنا سؤال يُواجهون به لا محالة . . فإذا ترك الصالحون الورعون أمور الْحكم ، فَفى يد مَن ستسقط . . ؟ فى يد الآخرين الذين ليسوا بصالحين ولا وَرِعين طبعاً . . فهل بهذا الموقف يكون « أهل الله » قد خدموا الْقضيةَ التى يعيشون من أجلها . . ؟

وفى تقديرى أنهم باديء ذى بدء لا يرفضون هذا السؤال فحسب ، بل يرفضون الْحق فى توجيهه . .

فكما أن ورعهم وتقواهم لا يؤهلانهم ـ بالضرورة ـ لأن يكونوا أطباء أو مهندسين مثلا ، فكذلك لا يؤهلانهم لأن يكونوا حكاماً . .

لقد تخصص أولئك الأبرار وتبتلوا لغاية أبعد ما تكون عن الْحكم ومشاكله .

ثم إنهم لا يقبلون ولو أُنزلَ بهم كل عذاب أن يتخلوا عن ذرّة من ذلك التفوق الروحى الذى أحرزوه . .

إنهم يمارسون مسئوليتهم عن أنفسهم فى مستوى عال من الورع . .

وبالتالى ، فحين يحملون مسئولية تجاه غيرهم من الناس فلا بد أن يحتفظوا بذلك المستوى لأنفسهم على الأقل إذا لم يستطيعوا أن يرفعُوا إليه الذين سَيَلُون أمرهم . .

وهذا موضع شكهم الْكبير ـ لاسيما فى الْعهود التى عايشوها . . أيام الأمويين والْعباسيين ، حيث فتحت الدنيا على الناس كل مباهجها وفتنها وخطاياها . .

ولقد رأينا كيف كان بعض أصحاب رسول الله يهربون من مناصب الْولاية فى عهد « عمر بن الْخطاب » إمام الأئمة فى ورعه وعدله وتقواه . . أفَيَلَامُ أولئك الذين يهربون منها بعد أن تحوّلت الْخلافة الراشدة إلى مُلك عَضُوض . . . ؟ !

□□□

ثم إن « أهل الله » فى موقفهم هذا ، لم يعدموا التجربة التى تزيدهم تصميماً على موقفهم ، فقد قبل بعضهم الْولاية راجياً أن ينقل إليها بعض فضائل الْقوم وورعهم . . فما كانت تنقضى شهور ، وربما أيام حتى يَفرَّ بدينه . . ! !

هذا « هرم بن حَيان » يقبل الْعمل كأمير لإحدى الْولايات . . فكان أول ما ملأ نفسه غثياناً وجزعاً ، ذَلك الملَق الذى أحاطه به صغار النفوس ـ وما أكثرهم ! ! ولكنه تصرَّف بسرعة . . فذات يوم علم أن بعض الْوفود قادمة لزيارته . فنهض وأوقد ناراً عظيمة أمام داره ، وأخذ كلما خَبَتْ زادها وقوداً . . ! ! .

وجاء الْوفد . . ووقفوا من وراء النار يحيون . . وهو يبتسم لهم ساخراً ويقول : مرحباً . . اقتربوا . .

قالوا : ما نستطيع من النار . . إنها تحول بيننا وبينك .

وهنا ناداهم بصوت جهير :

[إنكم تريدون أن تقذفوا بى فى نار أشد من هذه وأعظم . . نار جهنم] ! !

وأدركوا ما يريد ، ورجعوا بسلام . .

ومضت أيام ، وهو يظن أنه سيصبح قادرا على تحقيق بعض ما يريد . .

ثم جاء يوم غضب فيه على رجل لأمر يستدعى الغضب ، فقام إليه وضربه . . ثم لم يلبث أن أخذه ندم قاتل ، وصاح فيمن حوله :

« لا جزاكم الله خيرا ، إذْ لم تنصحونى ولم تردونى عن غَضبى . . والله لا ألِى لكم عملا » ! !

ثم ترك الولاية من فوره . .

إنهم إذن مهما يحاولوا لا يستطيعون أن يحيوا إلا فى مُناخ آخر ، خُلِقَ لهم وخُلقوا له .

ومع هذا ، فهل يحسب حاسب أن فى موقفهم ذاك أدنى قدْر من السَّلبية . . ؟ ؟

هيهات أن يصح ذلك ، ثم هيهات . .

فأولئك الذين استعلوا عن مناصب يتهافت عليها الناس ويتهالكون لم يكن يُفزِّع الخلفاء والسلاطين خطر ، مثلما تفزعهم أصواتهم الجهيرة تزجرهم عن الظلم وتحقِّر كل ما معهم من قوة باطشة وجاه عريض . .

لقد كانت مواعظهم اللافحة تدق قلوبهم بعنف ، وتقرع أسماعهم فى دَوام . . لا مُجاملة ولا مُصانعة ! !

ومن خلال مواعظهم تلك ، نقف على حظ من فلسفتهم وأفكارهم حول وظيفة الحكم وواجبات الحاكم . .

هذا « أبومسلم الْخولانى » رضى الله عنه ، يدخل على « معاوية » وهو من هو بأساً ومُلكاً وقوة . . بطانته حافُون حوله ، فيحييه « أبومسلم » قائلا :

« السلام عليك أيها الأجير »

وتتراكض الْحاشية فى فزع مما سمعت . ويقولون لأبى مسلم هامسين : قل : أيها الأمير . . فيعيد « أبومسلم » الْكرَّة . .

« السلام عليك ، أيها الأجير »

فيقولِ « معاوية » لصحبه : دعوه ، فإن أبا مسلم يعرف ما يقول :

ويُواصل « أبومسلم » حديثه لمعاوية :

« إنما مثلك مثل أجير أؤتمن على ماشية ليُحسن رعيها ، ويوفر أَلْبانها ، وينمى الصغيرة ، ويسمن الْعجفاءَ . .

« فإن هو فعل ، استحق أجره وزيادة .

« وإن هو لم يفعل نزل به عقاب مستخلفه ولم ينل أجراً . .

يامعاوية . .

« إنك إن عدلت مع أهل الأرض جميعاً ، ثم جُرْتَ على رجل واحد ، مالَ جورُك بعَدْلك . .

يامعاوية . .

« لا تحسبن الْخلافة جمع المال وإغداقه . . إنما الْخلافة ، الْعمل بالحق ، والْقول بالمعدَلة ، وأخذ الناس فى ذات الله » . .

يامعاوية . .

إن الناس لا يُبالون بكدر الأنهار ما صَفَا النبع وطاب . .

« وإن مكان الْخليفة من الناس ، مكان النبع الذى يرجون صفاءه » . . ! !

□□□

بمثل هذه الروح ، كانوا يتعاملون مع أولى الْحكم والسلطان ، يعظونهم ويجاوزون الموعظة إلى الزجر عندما تدعو للزجر دواعيه .

وهم بهذا إنما يشاركون ـ حقيقة ـ فى حمل كل تبعات الْحكم الذى رفضوا مناصبه . . فالْحكم قد يكون محصوراً فى وظائفه ومناصبه من ناحية الشكل . أما من حيث الموضع والمسئولية ، فكل مشورة صادقة تقدم إليه . . وكل نصيحة جادَّة تُسْدَى إليه . . وكل معارضة أمينة تتوخى تقويمه . . كل أولئك إنما يُشكل مشاركة حقيقية وفعَّالة فى حمل مسئولياته الثِّقال .

يقول « أبو مسلم الْخُولانى » :

« لا يصلح الناس إلا بإمام ، ولا يصلح الإمام إلا بالناس » فهم إذن لا تغيب عنهم ضرورة أن يكون للناس إمام ورئيس دولة يحمل مع الآخرين تبعات السلطة الممنوحة له من الأُمة ليحقق لها أسباب الْحياة الْعادلة الصالحة الْكريمة . . وكذلك لا تغيب عنهم ضرورة أن يكون الناس شركاءَ فى الْحكم ، وأن يكونوا من الْجدارة والاعتصام بالحق والْعدل والْخير إلى الْحدّ الذى ينعكس فيه ذلك كله إمامهم . . [فكما تكونون يُوَلّ عليكم] .

وكما قال أبو مسلم [ولا يصلح الإمام إلا بالناس] .

فالْحكم عندهم إذن يحلِّق بجناحين ـ الْحكومة ، والشعب .

ومسئولية الْحكم مفروضة على الْحاكم والمحكوم معاً . .

وإذا كان « أهل الله » يهربون من مناصبه ومغانمه ومبَاذِله ، فقد استبقوا لأنفسهم المشاركة فى المسئولية عن طريق معارضتهم الشجاعة لكل انحراف ، وتنديدهم الصارخ بكل جنوح .

ولقد كان إخلاصهم الْوثيق يفتح لهم قلوب الْخلفاء والأمراءِ طوعاً أو كرْهاً . . وحتى أُولئك الذين كانت قلوبهم مُوصَدَة ، كانوا يخجلون ويتضاءلون حين يرون ناساً بُسطَاءَ فى أسمال بالية يتحدَّون سلطانهم ، ولا يَعْبَأونَ بالسيف ولا بالذهب . . وحين كانت كبرياؤهم تدفعهم لاضطهادهم لم يكونوا يأملون قط أن يثنيهم الاضطهاد عن مواقفهم ، إنما كانوا يتوسَّلون باضطهادهم لتخويف الْعامّة وترويع الناس حتى لا يسلكوا ضدهم ذات السبيل . ! !

□□□

ولم تكن مجاملة بعض الْخلفاءِ والْحكام للكثيرين من « أهل الله وأوليائه » لتحملهم على المهادنة والملاينَةَ .

لقد كان هناك بعض خلفاءِ بنى أُمية ـ مثَلاً ـ مشغوفين بأن يسمعوا مواعظ أولئك الأبرار حتى وإن أحرجتهم وأذَلَّتهم .

أولا يستحق هذا ، ولو بعض الملاطفة فى توجيه النصح والْحديث إليهم . . ؟

إن لكلمة الْحق عند « أهل الله » أُسلوبا واحداً لا يتغير . . فإن كانت لحاكم متواضع متطلع إلى إصلاح نفسه وحكمه ، قالوها رقيقة رفيقة وادعة . . وإن كانت لمتغطرس صلِف ، أو جبار مستكبر لَفحوه بها كالسياط المفتولة . !

هذا أحدهم ، يقول لمالك بن دينار : ادع الله لى ، فيجيبه :

« . . كم من مظلوم بالباب يدعو عليك » . .

وآخر ، يسأله الدعاءَ أيضاً فيجيبه :

« كيف أدعو لكم ، وألْف يدعون عليكم . .

أيستجاب لواحد ، ولا يستجاب لألف » ؟ ؟

وذاك خليفة آخر ملأ الدنيا بأُسُهُ ونفوذه ، تراوغه ذبابة ، كلما هشّها سقطت على وجهه ، فيتوجه إلى « جعفر الصادق » رضى الله عنه بسؤاله ، وكان حاضراً مجلسه ذاك :

« يا أبا عبدالله : لماذا خَلَقَ الله الذباب » ؟ ؟

فيجيبه جعفر : « لِيُذِلّ به الْجبابرة » ! ! !

ويكتب « زر بن حبيش » إلى عبد الملك بن مروان يعظه وينصحه ، ثم يقول فى آخر رسالته إليه :

« ولا يطمعك يا أمير المؤمنين فى طول الْحياة

ما ترى من صحتك ، فأنت أعلم بنفسك ، واذكر قول الْقائل :

إذا الرجال ولدتْ أولادُها

وَبَلِيْت من كبر أجسادُها

وَجَعَلَتْ أسقامها تعـودُها

فذِى زُروع قد دنا حصادُها ! !

إنه حتى فى المرض لا يجامله بكلمة مشجعة . . بل ينتهز فرصته ليذكره بالموت ، فيقول له : أنت أعلم بنفسك ، برغم ما يبدو من توهم الصحة . . ثم لا يبشره ، بل يذكره بالمصير المحتوم « فذى زروع قد دنا حصادُها » . . . ! ! !

حقاً ، لقد كان من رحمة الله بالناس ، ومن آيات توفيقه أن رفض أولئك الأبرار دنيا السلطان والملك ، ووقفوا على منابر من نور الْحق يرسلون كلماتهم هذه ، ويتخذون مواقفهم تلك . .

لقد كانوا مرافىءَ الْعافية للإيمان وللمؤمنين . وكانوا الصورة المشرقة والمشرِّفة للدين . .

وكانوا بنبذهم الدنيا ، وبشجاعتهم فى الْحق ، وبولائهم المطلق لله وكلماته . إنما يجددون باستمرار لفضائل الروح شبابها ، ويفيئون على الشخصية الإنسانية على اختلاف دينها كل التماسُك والصلابة والأمل . . . .

وقبل هذا كله ، كانوا إعلاناً وبرهاناً وثيقاً على أن الْقوة الْحقة . . الْقوة الْغالبة المنتصرة هى « قوة الروح » ، لا قوة الْعضلات ، ولا قوة المنصب ، أو المال ، أو الْجاه .

لقد رأى الناس ببركة هؤلاءِ الأبرار وبفضل سلوكهم كيف تخضع وتخشع كل مظاهر الْقوة والْكبرياء لكلمات عَزْلاء . . كانت مشاهدهم وملامحهم مع الْخلفاءِ والْولاة تسرى فى الديار والأقطار مَسْرى الرياح والْبُشْريات . فيعُبّ الناس من أنفاسها ما يُفجِّر فى أرواحهم أشواقاً إلى التسامى والإيمان ، وكان « أهل الله » على إدراك لهذه الْحقيقة . . حقيقة أن كل كلمة عادلة وصادقة وشجاعة يقرعون بها أسماع حاكم جائر ، إنما تمثل وحدها كتيبة من كتائب الهداية والْفضيلة والمعروف .

ولطالما تحدث الناس بذلك الْحوار الذى كان يجرى بين « أبى حازم ابن دينار » وبين الْخليفة الأموى « عبد الملك بن مروان » فيعتزون به ، ويَعِزون ، ويرون فيه إعلاناً لسيادة كل مؤمن فى كل صَقع ومكان . بل إن « الْخليفة عبدالملك » نفسه ، كان ينبهر بروح « أبى حازم » وكلماته

فلا يترك فرصة يظفر فيها بمجلس معه إلا اهْتَبلهَا مخاطراً بكل ما تتعرض له هيبته من اهتزاز تحت وقع الْكلمات الْقواطع التى يرسلها « أبو حازم » فى وجه الْخليفة ، ماضيات كالسيوف المرهفة . . ! !

ذهب « عبد الملك » يوماً لزيارة المدينة . . ودُعِىَ « أبو حازم » للقائه فما كاد يراه حتى دار بينهما هذا الْحوار :

الْخليفة : يا أبا حازم ، ما هذا الْجفاء . . ؟

أبو حازم : أى جفاء رأيت منى يا أمير المؤمنين . . ؟ !

الْخليفة : وجوه الناس زارونى ولم تزرنى . .

أبو حازم : ما عرفتنى قبل هذا ، ولا أنا رأيتك .

الْخليفة : يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت . . ؟

أبو حازم : لأنكم عمرتم الدنيا ، وخربّتم الآخرة فتكرهون الْخروج من الْعمران إلى الْخراب .

الْخليفة : صدقت . . ترى ماذا لنا عند الله غدا . . ؟

أبو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله تعرف مكانك غدا . .

الْخليفة : وأين أجده فى كتاب الله ؟

أبو حازم : عند قوله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الْفجَّار لفى جحيم » .

الْخليفة : فأين رحمة الله إذن ؟

أبو حازم : قريب من المحسنين . .

الْخليفة : وكيف لنا أن نُصلح أنفسنا ؟

أبو حازم : تتركون الصَّلف ، وتتمسكون بالمروءة ، وتقسمون بالسَّوية ، وتعدلون بين الناس ، وتأخذون المال بحقه ، وتضعونه فى حقه .

الْخليفة : يا أبا حازم ، ألا تصحبنا ، فننتفع بك وتنتفع بنا ؟ .

أبو حازم : لا . . . .

الْخليفة : ولِمَه . . ؟

أبو حازم : إنى أخاف أن أرْكَن إليكم شيئا قليلا ، فيذيقنى الله ضِعْف الْحياة وضعف الممات ثم لا أجد لى منه نصيراً .

الْخليفة : إذنْ فارفع إلىّ حاجتك أقضها لك . .

أبو حازم : تدخلنى الْجنة ، وتحرِّم علىَّ النار . .

الْخليفة : ليس ذاك لغير الله .

أبو حازم : وليس لى حاجة سواها . . ! ! !

الْخليفة : يا أباحازم ، ما رأْيك فينا . . ؟

أبو حازم : ألا تعفينى من هذا السؤال ؟

الْخليفة : إنها نصيحة تلقيها إلينا . .

أبو حازم : إن آباءك اغتصبوا هذا الأمر من الناس .

« أخذوهُ عُنوة بالسيف من غير مشورة ولا اختيار ـ يعنى بذلك الْخلافة والْحُكم ـ وقد قتلوا من أجله خلقاً كثيرين ، وبعد حين رَحلوا ، فلو تدرى مصيرهم عند الله . . ؟ ! ! » .

وهنا ضاق الْحاضرون أو بعضهم ، أو تظاهروا بالضيق ، فقال أحدهم لأبى حازم [بئس ما تخاطب به الْخليفة] فلفحه « أبوحازم » بصوت غَضُوب :

كَذَبْت . .

« إن الله أخذ على الْعلماءِ ميثاقه لَيُبَيِّنُنَّ للناس أمره ولا يكتمونه » . . ! !

وأمسك الْخليفة زمام الْحديث مسرعاً قبل أن يفلت الزمام ويتفجر غضب « أبى حازم » فتكون كارثة . ! ! وعاد يسأله النصح :

الْخليفة : يا أباحازم ، أوْصِني . .

أبو حازم : نعم سأوصيك وأوجِز . .

[نزِّه الله تعالى وعظِّمه ، بحيث لا يراك حيث نهاك . .

ولا يفتقدك حيث أمرك] .

وهمّ « أبو حازم » بالانصراف . فقد منح الْخليفةَ من وقته الثمين ما لم يكن سيظفر بلحظة منه لولا رغبة « أبى حازم » فى أن يوقظه بتلك الْكلمات . .

وإذ هو ينهض ذاهباً ، تناول الْخليفة صرة منتفخة بالدنانير ، وقال لأبى حازم على استحياء : ألا تقبل منا هذه . . ؟

ونظرها « أبو حازم » باشمئزاز وقال :

« والله ما أرضاها لك ، فكيف أرضاها لنفسى » . . ؟

يريد بذلك أنها ليست حلالاً فيرضاها للخليفة وينفقها على دنياه . . فكيف إذن لأبى حازم ، والدنيا كلها لا تزيد فى نفسه عن حفنة تراب . ؟ !

ولأهل الله فى هذا المقام مواقف كان أبطالها على يقين من أنها ستنتهى بقتلهم واستشهادهم فما جزعوا وما لانوا . . ولا تَلَفَّتوا باحثين عن خلاص أو نجاة . . ذلك لأنهم لم يروا الْخلاص قط فى استبقاءِ الْحياة ، بل فى استبقاءِ إيمانهم وفضائلهم واستعلائها فوق الْحياة . . ! !

ومن هذا الطراز ، وتلكم المواقف ، « سعيد بن جبير » وموقفه من الْحجَّاج . .

لقد صمم الْحجاج على قتله ، بيد أنه أراد أن يتم مصرع « ولى الله سعيد » فى مشهد درامى يُشبع جوع الْحجاج وسعاره إلى التشفى والانتقام . . كما أَراد أن يستردَّ بعض هيبته بكلمات ظنَّ أن رهبة الموت ستدفعها على لسان « سعيد » فى استكانة أو تلَطف . لكن « سعيداً » أمام الهول والموت فاجأ الْحجاج بما جعله أهون من ذبابة . . ! !

ولنطالع هذه الْفقرة من حوار طويل دار بينهما :

الْحجاج : ما اسمك . . ؟

سعيد : سعيدُ بنُ جُبَير .

الْحجاج : بل شَقىّ بن كُسَيْر . .

سعيد : أُمّى أعلم باسمى منك . .

الْحجاج : شقيتَ وشَقِيتْ أُمك ! !

سعيد : الْغيْب يعلمه غيرك .

الْحجاج : لَأبدلنك بالدنيا ناراً تَلظَّى . .

سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لا تخذتك إلهاً . . ! !

الْحجاج : الْويل لك يا سعيد .

سعيد : بل الْويل لمن زُحْزِحَ عن الْجنة وأُدخِل النار . .

الْحجاج : اختر لنفسك نوع الْقتلة التى تريد أَن تُقْتلَ بها . .

سعيد : بل اختر أَنت يا حجَّاج ، فو الله لا تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة . . ! !

وتلَعثم الْحجاج فى خَباله ، وفى المهانة التى أنزلها به رجل أعزل تفصله عن الْقتل والموت دقائق معدودات ، وصاح فى حرسه ليذهبوا به ! ويقتلوه . .

وهنا ضحك « ولى الله سعيد بن جبير » ضحكة عريضة عالية ، زادت

الطاغية جنوناً ومهانة ، فصرخ فى وجهه : ما يضحكك . . ؟

وفى هدوء المحيط وقوته أجاب « سعيد » :

« جراءَتك على الله ، وحلم الله عليك » ! !!

واقتربَ الْجلاد بسيفه ليطوح برأْس سعيد فما اختلج ولا اهتز له جَفن . بل راح يتلو الآية الْكريمة :

« إنّى وجَّهتُ وجهىَ للذى فطر السموات والأَرض حنيفاً وما أَنا من المشركين » .

وصاح الْحجاج فى جلاده ليدير « سعيدا » عن ناحية الْقبلة ، إمعاناً فى التنفيس عن مهانته . .

ولم يكترث « ولى الله » أيضاً ، وتلا الآية الْكريمة :

« ولله المشرق والمغرب . فأَينما تُولوا فثَمّ وَجْهُ الله » .

فقد الْحجاج آخر مسكة فى عقلة فصاح : كبُّوه على وجهه . . .

وفى يقين « أَهل الله الأَبرار » تلا « سعيد » الآية الْكريمة :

« منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أُخرى » .

ثم سَجَّى بصره ودعا ربه قائلا :

« اللهم لا تُسلِّطه على أحد بعدى »

عِندَ من - غير أهل الله - نجد كل هذا السمو يا رجال ؟ ؟

إنه فى لحظة الهول هذه لا يشغله مصيره . . بل مصير الآخرين الذين يتلمَّظ بهم جنون الْحجاج وبطشه .

إنه فى لحظة الهول هذه . لا أُمنية له ولا رجاءَ ولا دعاءَ سوى أن يكون آخر ضحايا الطاغية ، وأَن يحمل وحده النِّير الذى ينتظر الآخرين . .

ولقد استجاب الله دعاءه . فلم يعش الحجاج بعدها سوى خمسة عشر يوما ، قضاها فى عِلّة قاتلة لم تمكنه من قتل أحد بعد سعيد !!!.

* * *

ترى ، أية قوة مقتدرة كانت تملأ أرواح أولئك الأبرار . . ؟ ؟ إنها قوة الإيمان بالله ، والفهم عن الله . .

أما الأيمان فتركهم يوقنون أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم . وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم . . ودائماً وأبداً لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم . .

وأما الفهم عن الله ، فقد جعلهم يدركون حقيقة هؤلاءِ الخلفاءِ والأمراء .

إنهم ليسوا سوى ناس كبقية الناس . . وإذا كان أحدهم يستطيع بسلطانه أن يقتل . فإن أى معتوه من الناس الذين يملأون الطرقات يستطيع هو الآخر أن يقتل حتى دون أن يقع من المقتول ذنب ، أو جريرة .

إنهم - أبداً - لم يروا فى أولئك الحكام العظام جبروت السلطة ، ولا تيجان الملك . . بل رأوا ضعف الإنسان ، ومَذلة الخطيئة . . ! !

أجل . . إن حسن فهمهم عن الله سبحانه ، أعطاهم حقيقة هؤلاء الذين يُخفون وراءَ سلطانهم ونفوذهم وسيوفهم وسجونهم أضعف الأنفس وأكثرها فزعاً وهواناً . . ! ! !

لقد قال أحد الأبرار :

« ذنوب بنى أمية ، أسرع إليهم من سيوف المسلمين » .

ولكم كان صادقاً ، فظلم الحاكم الجائر ، هو السيف الذى يُهَيأ لقطع

رقبته . . وكلما أوغل فى ظلمه ، كان ذلك شحذاً للسيف وإرهافاً لِحَدِّهِ . . ! !

من أجل ذلك ، نرى « أهل الله » وهم يلفحون الْجبَّارين بنصحهم وتنديدهم إنما يقفون منهم موقف الرثاءِ لهم لا الشماتة فيهم ، لَأنهم يعلمون أنهم ضحايا حمقهم وجهلهم وظلمهم وكبريائهم الْكاذبة الْخادعة . فلو كان معهم وعى وبصَر ، لعلموا أنهم أثقل الناس أحمالا بما وُضِع فوق كواهلهم من تبعات . . وليسوا أكثر الناس شرفاً ولا امتيازاً . .

ولقد كان « أهل الله » حريصين على تذكيرهم دائماً بهذه الْحقيقة فهذا ـ مثلا ـ « مالك بن دينار » يقول له المهلب بن أبى صُفْرَة . .

— ألا تعرفنى . . ؟

فيجيبه « مالك » ـ بلى ، أعرفك حق المعرفة ؟

فيسأله المهلب : — وماذا تعرفى منى . . ؟

ويجيبه « مالك » :

« . . أمّا أوّلك ، فنطفة مَذِرَة . . وأما آخرك ، فجيفَة قذرَة . . وأنت بين أوّلك وآخرك ، تحمل الْعَذِرَة » .

إن « مالكاً » رضى الله عنه لا يشتمه ولا يتهكم عليه ولا يسخر به . . إنما هو يذكره بحقيقته ، التى هى حقيقة كل فرد من بنى آدم . .

فكل واحد منا . . يبدأ وجوده من نطفة مَذِرَة لَزجة .

وكل واحد منا . . ينتهى فى الْقبر إلى جيفَة . .

وطوَال الْعمر الذى نقضيه بين ميلادنا ورحيلنا نحمل أمعاءً مَلأى على الدوام بالفضلات الْكريهة . .

فلو أن كل جبَّار فى الأرض يذكر حقيقته تلك لَأعانته على تواضع كريم . .

أما وهم لحقيقتهم ناسون « فأهل الله » يذكرونهم بها فى صَدْع اليقين . . ! ! !

ولقد تصدى « طاووس » رضى الله عنه يوماً لواحد من أولئك الحكام الأشداء . . وأخذت ابنه عليه خِيفَةٌ ، فاقترب منه وهمس فى أذنه ، يخبره أن هذا الذى أمامه حاكم خُراسان . .

فقال « طاووس » لابنه : إنى لأعرفه . . وإنما أُلْقِتُهُ هذه الكلمات ليعلم أن لله عباداً لا يَعْبَأُونَ بما فى أيديهم من دنيا وسلطان . . وأن سلطانهم بغير تقوى لا يزيدهم فى أعيننا إلا هواناً . . ! ! !

فى هذه الصورة السريعة ، والمختارات المقِلة من فلسفتهم تجاه الحكم وأفكارهم عنه ـ نرى قوماً يبلغون الذروة فى أداءِ ما ائتمنوا عليه من رعاية أنفسهم ومبادئهم وحقوق الناس عند ذوى البأس والسلطان !

* * *

كانوا يرون فى موقفهم ذاك من السلطة جهاداً كتبه الله عليهم .

ولقد كان الظن بهؤلاءِ الذين لاذوا بشعاب الجبال فراراً بأنفسهم من الفتن ، أن يحصروا جهادهم فى جهاد النفس ـ فما شغلهم فى حياتهم مثل نفوسهم التى لم يكونوا يرضون لها دون الكمال مقاماً . .

هذا الجهاد . الذى أسماه الرسول عليه السلام ـ بالجهاد الأكبر . .

لكنّ « أهل الله » وقد تحقق لهم « التكامل الدينى » على أفضل نسق ، لم يكن ليفوتهم لله واجب .

ولأنهم نماذج كاملة بحق ، للإسلام كله ـ روحانية وشريعة ، فقد رأينا فوق أرض القتال فى المعارك التى كانت تدور بين الإسلام وخصومه أكثر المقاتلين غبطة بالموت واستبسالاً فيه . . ! !

ورأينا أفكارهم وكلماتهم عن هذه القضية أفكار وكلمات أبرار بلغوا الذروة فى حسن الفهم عن الله ، والفهم لدينه . .

هذا « يحيى بن أبى كثير » يقول :

« ستٌ خصال من كنَّ فيه ، فقد استكمل الإيمان . .

* قتال أعداء الله بالسيف
* والصوم فى الصيف
* وإسباغ الوضوءِ فى اليوم الشاتى
* والتبكير إلى الصلاة فى اليوم المطير
* وترك الجدال والمرَاء ، والحق معك
* والصبر على المصيبة . .

فهو يجىء بأمور تتصل بالعبادة أساساً ، لكنها تتخذ مع كونها عبادة وسيلة لتربية النفس وتفوقها على ضعفها .

وهو لا يتحدث عن مجرد الصوم . . بل عن الصوم فى الصيف وهو من مكاره النفس لما فيه من إرهاق لها . . ولا يتحدث عن مجرد الوضوءِ أو الصلاة . . بل عن إسباغ الوضوءِ أى إتقانه فى اليوم الزمهرير . . وعن التبكير للصلاة فى اليوم المطير ـ وهما أيضاً من مكاره النفس دائماً أو غالبا .

وهكذا نرى فى وضعه « قتال الأَعداء بالسيف » على رأس هذه الخصال الست تبياناً لجزء من فلسفتهم عنه . . فهو ليس فقط ذلك الفرض الدينى العظيم ، وليس فقط تلك القربى الحافلة لله ولرسوله ولدينه . . بل هو أيضاً مظهر انتصار النفس على مكاره الطاعات . الأمر الذى يسعى « أهل الله » أول ما يسعون لتحقيقه وإحرازه . .

وإنهم ليذكِّرون الناس دائماً ، بأَن الجهاد فى سبيل الله وسيلتهم للنجاة

من عذابه . .

يقول « يزيد بن مرثد »

« عينان لا يمسُّهما الْعذاب :

* عين بكَتْ من خشية الله . .

* وعين سَهِرتْ من وراءِ المسلمين »

يعنى عيون المقاتلين التى تسهر لتحمى التُّخُومَ وتوفِّر الطمأنينة ، وتحقق النصر . .

كذلك يذكِّرونهم بأَن الْجهاد سبيلهم إلى الْجنة .

يقول « يحيى بن أَبى كثير »

« موطنان تزخرف فيهما الْجنَّة ، وَتُزَيَّن الْحور الْعِين :

* عند الصلاة . .

* وعند الْقتال » .

* * *

ويلحُّ أُولئك الأَبرار على تمجيد الْقتال فى سبيل الله إلحاحاً يثير الدهش حقاً ، فالعهد بهم رجال صوامع ونُسُك . . لكن منْ ذَا الذى يفهم دين الله مثل فهمهم . . ؟ ومن الذى يدرك مثلهم متى يملأون صوامعهم بالدموع الْمُنْثالَة من خشية الله ، ومتى يملأون أَرض المعارك بدمائهم المهراقة فى سبيل الله . . ! !

انظروا . .

هذا قدِّيس منهم وبطَل « عمرو بن عتبة » رضى الله عنه وعنهم أجمعين . . يخرج للجهاد ضدّ الروم وعليه حُلَّة جديدة بيضاء . . يمتلأها ويتأملها طويلا ، ثم يقول :

« ما أَحسن الدم يتحدَّر على هذه !

« إنى سألت الله ثلاثاَ ، فأعطانى اثنتين وأنا أنتظر الثالثة . .

* سأَلته أَن يزهِّدنى فى الدنيا ، فما أُبالى ما أَقبل منها وما أَدبَرَ . .

* وسأَلته أَن يقوينى على الصلاة ـ يعنى على الإكثار منها ـ فرزقنيها

* وسأَلته الشهادة فى سبيله فأَنا أنتظرها وأرجوها » .

ثم اقتحم المعركة كالإعصار ، حتى إذا أصابه أول جراحها نظر إليه فقال :

« إنك جرح صغير ، وقد يبارك الله فى الْجرح الصغير » ! !

يعنى أنه قد يكون سبباً كافياً للاستشهاد . .

ونال فى ذلك الْيوم ما تمنى . . ولقى الله فى عُرس المتقين . . ! !

وكان قد اشترى قبل خروجه للقتال فرساً بثمن مرتفع أَربعة آلاف درهم ، فلاموه على ذلك ، فكان جوابه :

« إن خطوة واحدة يخطوها فى سبيل الله يقربنى بها من أَعدائه ، لَأحب إلىّ من أربعة آلاف درهم » . !

بالله كم هم معجزون وباهرون أُولئك الأَبرار .

إنهم لا يقاتلون وحسب . . بل يمارسون الْقتال فى نشوة المحب الْعاشق الودود ! !

وإن موقفهم هذا من الْجهاد ليكشف عن تكامُل شخصية المسلم والمؤمن والصوفى والولى فيهم على نمَط فريد .

فنفس الهيام والانجذاب والْوجد الذى يغشاهم ويملأ قلوبهم بالفرح

والشوق حينما يذكرون الله ويعبدونه . . نفس هذا الهُيام وهذا الوَجد هو الذى يعانقون به سيوفهم ، ثم مصارعهم فوق أَرض الْقتال فى سبيل الله . . ! !

فعمرو بن عبتة ـ كما شهدنا ـ لا يكفيه مجرد فرس يصلح ليقاتل فوق ظهره . . بل لا بد أَن يتفنن فى شرائه ويُمهره أغلى المهور والْأثمان . . ثم ها هو ذا يتملَّى ثوبه الناصع الذى ارتداه للمعركة خاصة . . ويرى كم هو جميل . . ولكن المشهد لن يكون فاتنا حقاً فى نظره إلا إذا ضَمَّخَ دمه الْقانى هذا الثوب الْجديد . .

ثم يخرج ، فيداعب جرحه قائلا :

« إنك جرح صغير . . وقد يبارك الله فى الْجرح الصغير » ! ! !

عاشق يُغنى لموعده المرقوب . . ! !

ومُتيم بلقاءِ الله ، يُغَرِّد لمصيره . . ! !

وكلهم ذلك الرجل . . بل ذلكم « الرجال »

فهذا « شقيق بن سلمة » يقول :

« لَأن يكون لى ولد يقاتل فى سبيل الله ، أَحب إلىّ من مائة ألف » !

إنه يتمنى لو يكون له ولد يقاتل فى سبيل الله . . فماذا صنع الذين كان لهم منهم بنون وأولاد . . ؟

ها هو ذا واحد منهم . « صِلة بن أشيم الْعدوى » . . يخرج فى غزوة ومعه ولده ، وعند المعركة يتملَّى وجهه المضىءَ وشبابه الْباهر . . ثم يضمه إلى صدره ويدفعه صوب الصفوف الملتحمة وهو يقول :

« أىْ بُنَىّ . .

« تقدَّم فقاتل حتى أَحتسبك » ! !

ويندفع الْفتى فيقاتل حتى يستشهد . . وأبوه فى نشوته الْعارمة يكاد من الْبهجة يذوب . .

ماذا . . ؟ صبراً ، فالإعجاز لم يبلغ بعد تمامه . . ولسوف يبلغه عندما تذهب النسوة بعد المعركة إلى زوجة « صلة بن أشيم » وأم الْفتى الشهيد ، واسمها « مُعاذة الْعدوية » . .

ذهبن إليها معزيات ، فإذا بها تهتف فى وجوههن :

« إن كنتن جئتن لتهنئننى ، فمرحباً بِكُنَّ » .

« وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن » ! ! !

ويحدثنا « مالك بن دينار » عن أخ له فى الله هو « عبد الله بن غالب » . وقد رآه بنفسه فى إحدى مَعارك الْقتال . . « يقول » « مالك » :

« . . سمعته يقول وقد تلاحمت الصفوف إنى لأرى أمراً مالى عليه صَبْر . . روحوا بنا إلى الْجنَّة . .

« ثم كسر جفن سيفه ، وتقدم فقاتل حتى قُتل . .

« فكان يوجد من قبره ريح المسك حتى إن الناس كانوا يحثون من تراب قبره ويعفرون ثيابهم لتفوح طِيباً . . ! ! ! » .

أفهؤُلاءِ من يُقال عنهم إنهم يعيشون فى عزلة . . ؟ !

أفهؤُلاءِ من يُقال عنهم ، إنهم نفضوا أَيديهم من مشكلات الناس والْحياة وعكفوا على أنفسهم وحدها ، لا يعنيهم سواها .

أفهؤُلاءِ وقد رأينا نضالهم الْباهر فى غُرفات الْعرش للخلفاءِ والملوك تارة . . وفوق أرض الْقتال مع أعداءِ الدين والْبلاد تارة أخرى . .

أفهؤلاءِ كانوا ـ كما يُقال ـ يحيون فى عزلة ويعيشون فى السَّحاب . . ؟

لننظر الآن ماذا كانت عزلتهم . ؟ ماذا كانت حقيقتها . . وكيف كان

فكرهم وموقفهم منها . . ؟

* * * *

يقول « مطرف بن عبد الله » .

(أنا أفقر إلى الجماعة من عجوز أرملة ، لأننى فى الجماعة أعرف قبلتى ووجهى) ! ! !

هذه حكمة بليغة نستهل بها رؤيتنا لموقف « أهل الله » من العزلة . . والحق أنهم لم يعرفوا العزلة ، وإن كانوا ـ فى تقديرنا ـ قد عرفوا الاعتزال . .

والعزلة ، موقف جانح يحمل صاحبه على الانسلاخ من الجماعة ، وقطع جميع الخطوط التى تصل المرء بها .

أما الاعتزال فنوع من المراجعة ، يراجع المرءُ بها نفسه ، والناس الذين يصحبهم ويعيش بينهم .

فبمراجعة نفسه ، يعتزل ما يقترف من خطيئة ، أو فتور عن الطاعة . . وبمراجعة الناس ، يعتزل منهم الفاسد ، وكل من لا يكون عوناً على العبادة والخير . .

« وأهل الله » كانوا من أنصار الاعتزال بمعناه هذا . . لكنهم لم يكونوا من دعاة العزلة المنهزمة الواضعة بينها وبين الحياة سدوداً شاهقة . .

صحيح أن المريدين فى أولَى خطواتهم على الطريق ، يحتاجون إلى حياة صومعية يُربون فيها أنفسهم ويكوِّنون إرادتهم الجديدة . . بيد أنهم حتى فى هذه المرحلة لا ينفصلون عن الحياة وناسها ـ فالمساجد ومجالس العلم ومجالس الذكر تجمعهم بالصالحين . . ثم إن الاحتكاك

الحيوى أحدى وسائل التربية الوُثقى . لأن فضائل النفس لا تتكون فى الخواءِ . . بل فى معمعان الحياة وضوضائها حتى يشتدّ عود هذه الفضائل ، وحتى تصقلها الشدائد والصعاب :

وإذا ما اجتاز المريد والمتعبد هذه المرحلة الأولى ، واتّسقت شخصيته الصالحة ، بدأت تبعاته حيال إخوانه المؤمنين تشدُّه إلى علاقات إنسانية راشدة ، لا تسمح له بالعزلة أبداً .

وما يبدو لنا « عزلة » ليس فى الحقيقة إلا نَصَباً وجِداً فى السبيل التى اختاروها لأنفسهم ، أو أنعم الله بها عليهم . .

نحن نظنهم فى « عزلة » لأَننا لا نراهم معنا . . وهم ليسوا معنا ولا بيننا ، لأَنهم هناك فى مستوياتهم العالية مع قوم من طرازهم يمضون على ذات الطريق . . ومع ذلك فهم قريبون منا بقدر ما نحسبهم بعيدين . . ومختلطون بنا بقدر ما نظنهم معتزلين . .

* * *

إنهم يحيون مع الناس وللناس . . ويتخذون من صالحيهم شفعةً إلى الله . .

يقول « مالك بن دينار » :

« اللهم إن كان أَخلَقَ وجهى كثرة ذنوبى ، فَهبنى لمن أحببت من خَلقك »

ثم إنهم لا يعايشون الحياة والناس فحسب . . بل يعايشون على أعلى مستويات المعايشة والصداقة . .

وإنهم ليرتفعون بمستوى العلاقات الإنسانية إلى ذروة لا يقدر عليها سواهم . .

يقول « السَّرِىُّ السَّقَطِى »

« لا تتم المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر :
يا أنا ! !

ويتساءَل « محمد الْباقر » ؛ :

« هل يُدخل أحدكم يده فى جيب أخيه ، فيأْخذ
ما يريد . . ؟ قالوا . . لا .

« قال : إذن لستم إخواناً كما تزعمون » ! !

ولطالما عُنوا بالعلاقات الإنسانية ، ورسموا لها
فضائلها ، وحضُّوا الناس على التواصى بها . .

يقول « مالك بن دينار » :

« ليس لِمَلولٍ صديق »

من ذا الذى يكتشف علاقة الملل بالصداقة فى هذه الصورة الباهرة سوى أُستاذ فى فن الصداقة والْعلاقات الانسانية . . ؟

فالملول إنسان عجول قلق ، مُنَفِّر مقْبِض . . ومن ثم لا يكون له أَصدقاء . . ولأن « أهل الله » حريصون على إحياءِ روح الصداقة الْفاضلة بين الناس ، راحوا يحذرونهم من الرذائل التى تقاومها . .

والْعلاقات بين الناس عرضه للملاحاة ، ومن ثَمّ لابد من سَعة الصدر والتسامُح . .

« إن ظَللتَ تدعو على مَن ظَلمك ، فإن الله يقول :
هناك آخر يدعو عليك . .

« فإن شئت استجبنا لك ، واستجبنا فيك . .

« وإن شئت وسعكما عفوى يوم الْقيامة » . .

ما أروعها من صورة ، وما أبلغها من حكمة . .

ليس ذلك فحسب بل إن « أهل الله » ليعلموننا أن

الإساءة حتى فى صورها العنيفة جديرة بأن تُنسى . .
فالذين يسيئون للناس ، قد ساءَ من قبل مسلكهم مع الله سبحانه وتعالى . . فما نحن فى الميزان تجاه رب العالمين ؟

يقول « عبد الله بن أبى زكريا » :

« ما نقضوا من عهد الله أكبر مما نقضوا من عهدكم »

وحكمة أخرى يستنبطها من الأعماق أولئك الأبرار . . هى أن الذى يقضى حياته بمنجىً كامل من السفهاءِ ، إنسان فقد الكثير من أسباب عزّته . . تصوّروا هذا . . ! !

يقول « عبد الله بن أبى زكريا » :

« ذَلّ مَنْ لا سَفيهَ له » .

أين نجد مثل هذه الحكمة فى عمقها وإشراقها ودهاء معرفتها بالحيلة وبأسرار النفس والناس . . ؟ ؟

ذَلّ من لا سَفيه له . . ؟ ؟ كيف . . ؟

إنه - رضى الله عنه - ليفهم فهماً جميلاً آية القرآن الكريم :

« وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين » .

إن هذا العدو ، أو هذا السفيه هو الذى يظهر للملإ شموخ فضائلك . . ثم مَن هذا الذى تخلصُ حياته من عدو يكيد له ، أو سفيه يُسلّط عليه إلا أن يكون قد تناهى فى ضآلة الشأن وتفاهة القدر . . ؟

ويهتم « أهل الله » بما بين الناس من عهود ، وبضرورة التناصُح حتى يعيشوا إخواناً آمنين .

يقول « بكر بن عبد الله المزنى » :

« لو قيل لى خذ بيد خير أهل المسجد ، لقلت دلونى

على أَنصحهم للناس . .

« ولو قيل لى : خذ بيد شَرِّهم ، لقلت : دلونى على أغشِّهم للناس » .

وكان « ميمون بن مهران » يقول لصاحبه « جعفر بن يرقان » :

« يا جعفر . قل لى فى وجهى ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له ما يكره » .

ويقول « ميمون » أَيضاً :

« ثلاثة ، حق المؤمن والْكافر فيهن سواء :

* الأَمانة . تؤديها لمن ائتمنك عليها من مسلم وكافر » .

* والْوالدان ، تبرهما مسلمين أو كافرين » .

* والْعهد تفى به لمن عاهدت مسلماً أو كافراً » .

ما أَبعد هؤلاء الذين يرسمون فضائل الاجتماع عن الْعزلة . . هؤلاءِ الذين لم يقدِّس حقوق الإخاء والصحبة أَحد مثل ما فعلوا وقدَّسوا . .

يقول « خالد بن معدان » :

(أَخ لك كلما لقيك ذكَّرك بحظك من الله ، خير لك من أخ كلما لقيك وضع فى كفك ديناراً) .

إنهم يجردون الصحبة من المنفعة الدنيا التى تجعلها صفقة رخيصة وتحولها إلى علاقات مُريبة .

وإنهم لَيوصون بالتوادد فى كل مناسباته .

يقول « عطاء بن مَيْسرة » .

« امش مِيلًا ، عُدْ مريضاً

« وامش مِيلَيْن ، أَصلح بين اثنين

« وامش ثلاثة ، زُرْ أخاً فى الله »

ويرعرعون الاخاء بالمشاعر الطيبة الودود التى لا تكلف الناس شيئاً ، ومع هذا لا يحسنون عطاءَها . .

يقول « عروة بن الزبير » :

« لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً ، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم الْعطاء » .

و « أهل الله » يعلموننا أن نحيى الصداقة بحسن الظن والمبادرة إلى نسيان الإساءَة بمجرد الاعتذار عنها .

يقول « ميمون بن مهران » :

« ما بلغنى عن أحد مساءَة إلا كان إسقاطها عنه أحب إلىَّ من تحققها عليه . .

« فإن قال معتذراً : لم أقل ، كان قوله أحب إلىّ من ثمانية شهود يشهدون عليه . . » ! !

ولقد كانوا يضربون الْأمثال للناس . ليس فى الصفح وحده . . بل فى التفوق البعيد على كل مشاعر الْكراهية . .

يقول « إبراهيم التيمى » :

« إن الرجل ليظلمنى ، فأرحمه » . !

إنه يرثى لظالمه ، لَأنه إنسان قد شقى بظلمه وأَحلَّ نفسه من التعاسة ونقمة الْأقدار مكاناً أصبح يستحق معه الرثاءَ والرحمة . .

ويقول « إبراهيم » أيضا :

« رأيتنى فى المنام كأنى على نهر ، وقيل لى : اشرب واسْقِ مَن شئت ؛ بما صبرتَ وكنتَ من الْكاظمين » . .

ولقد كانوا يضعون على طريق الصداقة علامات ، يعرف بها الذين يزكو الإنسان بصحبتهم ، والذين ليسوا أهلا لدخول جنّة الصداقة .

فجعفر الصادق يقول :

« إن صاحت فَصاحِت الأخيار . فإن الفجار صخرة لا يتفجر ملؤها ، وشجرة لا يخضر ورقها ، وأرض لا ينبت غرسها » .

ثم يفصل بعض صفات الأخيار والأشرار فيقول نقلا عن والده الإمام « محمد الباقر » رضى الله عنهما :

« قال لى أبى : لا تصحبن خمسة ، ولا تتخذهم لك إخواناً .

« قلت : من هم . . ؟

« قال : الفاسق ، فإنه يبيعك بأكلة فما دونها . .

« قلت : وهل دون الأكلة شىء . . قال نعم : يطمع فيها ثم لا ينالها .

* « والبخيل ؛ فإنه يخذُلك بماله وأنت أحوج ما تكون إلى معونته . .

* « والكذب ؛ فإنه كالسراب ـ يبعد منك القريب ، ويُدنى البعيد . .

« والأحمق ؛ فإنه يريد أن ينفعك فيضرك .

* « وقاطع الرحم ؛ فإنه ملعون فى كتاب الله » ! !

فكل هذا الحديث منهم ـ رضى الله عنهم ـ عن الإخاءِ ، وحقوق الجماعة ، إنما يعطى صورة صحيحة لالتحامهم بالجماعة وبالناس . .

بل إن كثيراً من وصاياهم الحكيمة فى هذا السبيل ، كانت ثمرة تجربتهم

الحيَة فى واقع البشَر . . حتى لقد أوصوا الآخرين ألا يكتفوا فى معرفة الناس والحكم عليهم بالمظاهر العابرة . . بل بالتجربة الذكية . .

يقول « يحيى بن أبى كثير » :

« لا يعجبك حلم امرىء حتى يغضب

« ولا وأمانته ، حتى يطمع . .

« فإنك لا تدرى : عَلَى أى شقَّيه يقع . . ؟ ! » .

والتحامهم بالجماعة وحملهم تبعات بنائها واضح فى موقفهم من الأسرة والعائلة . .

فأَهل الله يستجيبون لروح الإسلام فى إثراءِ الحياة ودعم النوع البشرى بالذرية الصالحة . ومن هنا لم تكن الرهبانية ضمن منهجهم الذى انتهجوه للسير إلى الله . . وقلما نجد منهم من لم يكن زوجاً وأباً . بل طالما كانوا يحذرون الشباب الوافد على العبادة والنسك من الإحجام عن الزواج . . هذا « طاوس بن كيسان » يقول :

« لا يتم نُسُك الشاب حتى يتزوج »

وإنه لَيلقى يوماً - إبراهيم بن ميسرة - أحد العباد الزاهدين ، فيقول له :

« لتتزوَجَنَّ ، أو لأقولن لك ما قاله عمر بن الخطاب لأبى الزوائد : لقد قال له : ما يمنعك من الزواج إلا عجز . . أو فجور » . . ! !

لكنَّ « أهل الله » وقد كان لهم بالناس وبالزمان بَصر عجيب ، لم يكونوا ليتركوا حب الناس وبذلهم النصح لهم ، يأخذهم بعيداً عن المناخ الروحى المفعم بروح الرضوان .

أجل ، لم يكونوا من السذاجة ، ولا من الاستعداد لبخس أنفسهم العالية . .

لقد كانوا يعايشون الناس حقاً ، ويوطِّئون لهم أكتافهم ، ويدأبون فيهم بالنصح ، ويَدْرَأون عنهم ما استطاعوا ظلم حكامهم وجبّاريهم .

لكنهم كانوا يتجنبون هذَرَ الْجماعة وفتنها . . وكانوا يعرفون تماماً مع من يعيشون ويتعاملون . .

لقد قالوا لمالك بن دينار يوماً : ألا تستقى لنا . . ؟ فقال لهم :
« أنتم تستبطئون المطر . . ؟
« وأنا استبطىء الْحجارة » ! !

ويقول « مطرف بن عبد الله » :
« إن الْفتنة لا تأتى لتهدى الناس . بل لتنازع المؤمن عن دينه . .
« ولأن يسألنى الله غداً ، لماذا لم أقتل فلاناً ، أسلم لى من أن يسألنى :
لماذا قتلته . . » .

هنا يبدو اعتزالهم واضحاً . . فالقوم الذين يدفع أحدهم حياته قرباناً لله وثمناً لكلمة حق يصفع بها وجه سلطان جائر ، يعرفون متى يتقدمون ومتى يستأخرون . .

والْقوم الذين يتواضعون للناس حتى لكأنهم أدناهم جميعاً منزلة ، يعرفون كيف يحتفظون لذواتهم بصدارة الْقدوة الصالحة . .

فإذا رأيناهم يتوقُّون المخالطة حين يفرغون من واجباتهم تجاه الْجماعة ، فذلك حقهم المشروع . . بل هو غالباً ما يكون واجباً عليهم ولزاماً .

يقول « الشعبى » :

« تعايش الناس بالدين زمناً طويلا ، حتى ذهب الدين من نفوسهم . .
« ثم تعايشوا بالمروءة ، حتى ذهبت المروءة . .
« ثم تعايشوا بالحياء ، حتى ذهب الحياء . .
« وهم الآن يتعايشون بالرغبة والرهبة . .
« وسيأتى بعد هذا ما هو شر منه » !

ويقول « أبو مسلم الخولانى » :
« كان الناس ورقاً ، لا شوك فيه ، فأصبحوا شوكاً لا ورق معه » .

فكيف يطلب من الأبرار أن يبتذلوا أنفسهم ويعيشوا وسط ناس يتعاملون بالمنفعة وبالخوف . . ناس هم شوك لا ورق له . . ناس يقول عنهم « أوس بن عبد الله » :
« إن أحدهم ليأتى عليه عامة يومه لا يذكر الله إلا حالفاً » ! ! !

إن « أهل الله » لا يغفلون عن ذكر الله لحظة ، فكيف سيأنسون بمن لا يذكر الله أبداً إلا حين يحلف باسمه . . وكثيراً ما يكون كاذباً فى حلفه . . ؟ ؟

إنهم يودون أن يعيشوا أعمارهم مع الناس ، ويقضى الناس أعمارهم معهم . . ولكن كيف . . ؟

إن الناس فى السوق تعجّ أسواقهم بالغش والسرقة والخديعة ، وفى مجالسهم . . تعجّ مجالسهم بالنفاق والثلب والكذب . . بل إن بيوت الله ، كثيراً ما يجعلون منها مسرحاً لدنياهم الباطلة .

دخل « أبو مسلم الخولانى » المسجد يوماً ، فوجد فيه قوماً

مجتمعين ، ففرح بهم وأقبل عليهم ظاناً أنهم يذكرون الله أو يتدارسون العلم . . فلما دنا منهم إذا هم يَلغُون ويهذرون ، فنظر إليهم وقال :

« ياسبحان الله ! ! »

« إنما مثَلى ومثلكم ، كمثل رجل تعرّض لمطر غزير فالتفت فإذا باب مفتوح ، فقال أدخل هذا البيت أحتمى به من المطر . . فدخل فإذا البيت لا سقف له . .

« لقد قصدتكم راجياً أن يكون مجلسكم مجلس ذكر أو علم أنتفع به . فإذا هو مجلس دنيا فى بيت الله » ! ! !

* * *

إن قلوب « أهل الله » معلقة دائما بجلاله . . وحين يكون أحدهم معنا بشخصه ، وبمواعظه ومعونته . . يكون فى ذات الوقت مع الله بروحه وبقلبه ونيتّه ورجائه .

وليست فى دنيانا كلها ما يُغريهم ولا ما يشغلهم عن الله لحظة . يقول « مسروق بن عبد الرحمن » :

« ما بقى شىء يُرغب فيه إلا تعفير وجوهنا فى التراب »

يعنى دوام السجود لله رب العالمين .

أفهذا هو اعتزالهم ؟ حَبَّذَاه من اعتزال . . ! !

يتحدث صاحب لـ « عمرو بن قيس الملائى » فيقول :

كنت أطلبه فى السوق . . فإن لم أجده فى السوق ، وجدته فى بيته إما يصلى ، وإما يقرأ القرآن ، وكأنه يُبادر أموراً تفوته .

« فإن لم أجده فى بيته ، وجدته فى بعض مساجد

الْكوفة ، وقد أوى إلى زاوية من مسجد ، وجلس يبكى . .

« فإن لم أجده فى المسجد ، وجدته فى المقبرة ينوح على نفسه . .

« ولما مات عمرو ، وخرجنا بجنازته إذا الْبريَّة تمتلىءُ بطير أبيض لم نر مثل حسنه وخلقته . . ! !

« وأخذ الناس الْعجب ، فقال أبو حيان التيمى :

« مِمّ تعجبون ؟ هؤلاءِ ملائكة جاءُوا يشهدون جنازة عمرو ! ! ! » . .

فهذا الْقدِّيس والْعبد الصالح « عمرو بن قيس » يبحث عنه من يريده فى الْبيت مصلياً . . أو فى المسجد عابداً . . أو فى المقابر معتبراً . . ولكنه أيضاً وقبل ذلك فى السوق يمارس عمله وتجارته .

اعتزالهم إذن ، كان تجرُّداً لله . . لعبادته والسعى فى مرضاته بما يتضمّنه السعى من عمل للمعيشة . . ومن عون يُبذل للناس . .

يقول « خليد بن عبد الله » :

« لا تلقى المؤمن إلا فى ثلاث مواطن :

* « مسجد يعمره بعبادة الله . .

* « أو بيت يستره . .

* أو حاجة من أمر الدنيا ، ليس بها بأس » .

أجل . . إنهم ليدأبون فى الْحياة كدأب الآخرين . . فمنهم التاجر ، والصانع ، والمعلم ، والزارع . .

وإنهم ليسعون فى عون الناس ويخفُّون إلى نجدتهم كلما قدروا واستطاعوا . .

وإنهم ليَملأون الحياة بدَوىَ حِكمهم . وبعبير فضائلهم . . لكنَّ حياتهم الباطنة تجعلهم يَبدون بيننا ، وكأنهم غُرباء . .

ذلك أنهم كما قال « شميط بن عجلان » :

« أتاهم من الله أمر أقلقهم ، فناموا على خوف وقاموا على وقار » .

وكما يقول « الحسن البصرى » :

خليق بمن يعلم أن الموت مورده ، والساعة موعده ، والقيام بين يدى الله مشهده أن يطول حزنه » . .

إن أمامهم غاية تناديهم وموعداً يدعوهم . وليس معهم من العمر ما يكفى . ومن ثم فهم مُهطِعون وعدّاءون :

« يابنى تميم . . وهبتُ لكم شبابى فَهبُو لى شيبتى » . .

هذه صرخة أطلقها « إياس بن قتادة التميمى » فى قومه وعشيرته ، ليتركوا له البقية من عمره يدرك بها الركب المسرع إلى الرضوان العظيم .

ولقد سئل إمام من أئمة القوم . ذلكم هو « أويس القرنى » رضى الله عنه :

« كيف الزمان معك ؟

« فقال . وكيف يكون الزمان مع رجل إن أصبح ظنَّ أنه لا يمسى . وإن أمسى ظن أنه لا يُصْبح . . مُبَشَّر بالجنة ، أو مُبشَّر بالنار

 * « إن الموت وذِكره لم يدَعا لمؤمن فرحاً .

* « وإن علم المؤمن بحقوق ربه لم يترك له فى ماله فضة ولا ذهباً .

* « وإن قيامه بالحق لم يترك له صديقاً » . . ! !

* * *

هذا فى إيجاز هو الشكل الحقيقى لاعتزالهم . . اعتزال للشرور وللأشرار ، حتى لا تنال ولا ينالوا من تقواهم شيئاً . . وفى نفس الوقت رفض للشرور والتحام بالأشرار فى نضال باهر قوامه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهر بكلمة الحق فى وجه الخطر . .

إنه ارتفاع عن مستوى الناس بالجهد الخارق الذى يبذلونه فى العبادة وتزكية النفس . . لكنه فى نفس الوقت إسهام نبيل فى خدمة الناس وتبصيرهم بالحق .

كل ذلك دون أن يشغلهم عن ذكر الله ومحبته شىء .

يقول « عامر بن قيس » :

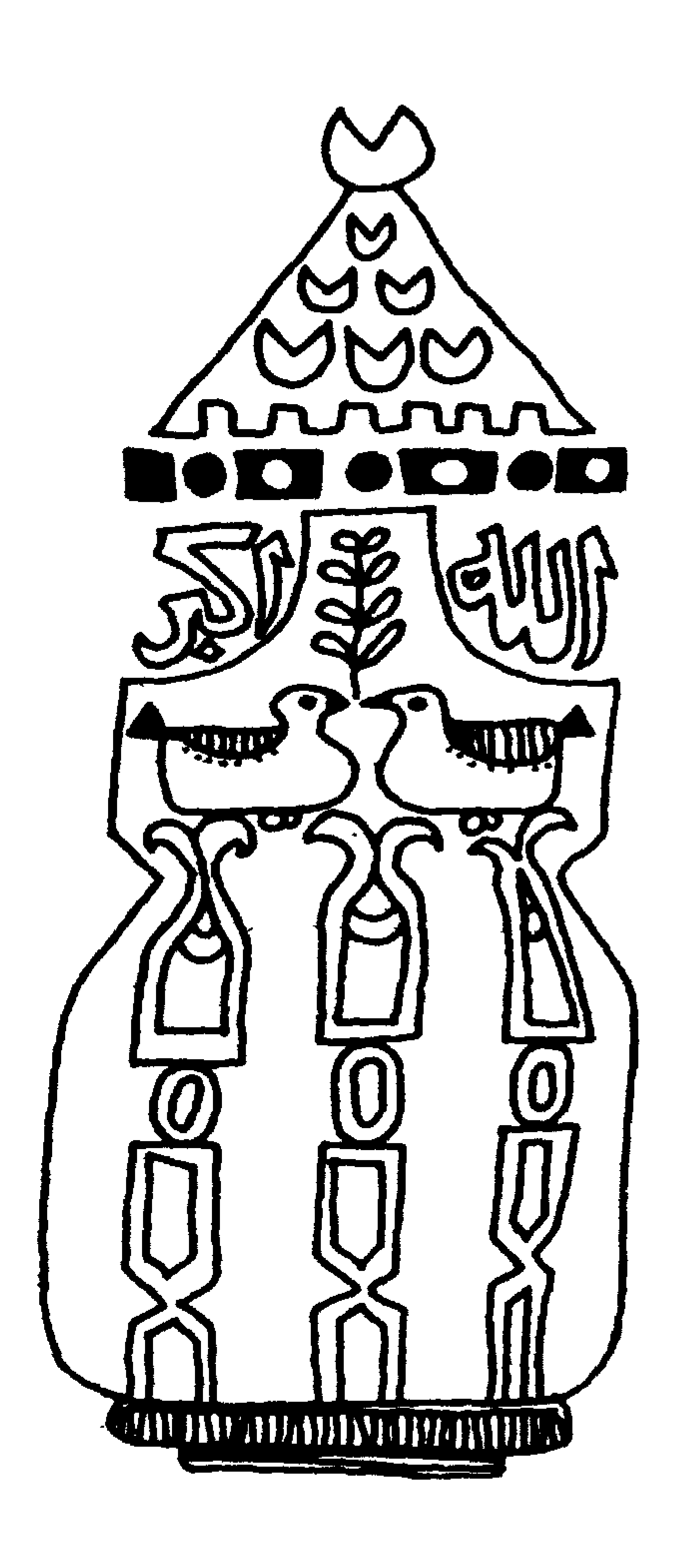
« والله ، لأن تختلف الأسِنَّة فى جوانحى ، أحبّ إلىّ
من أن أُشغَل عن ذكر الله ومحبته بشىء » . .

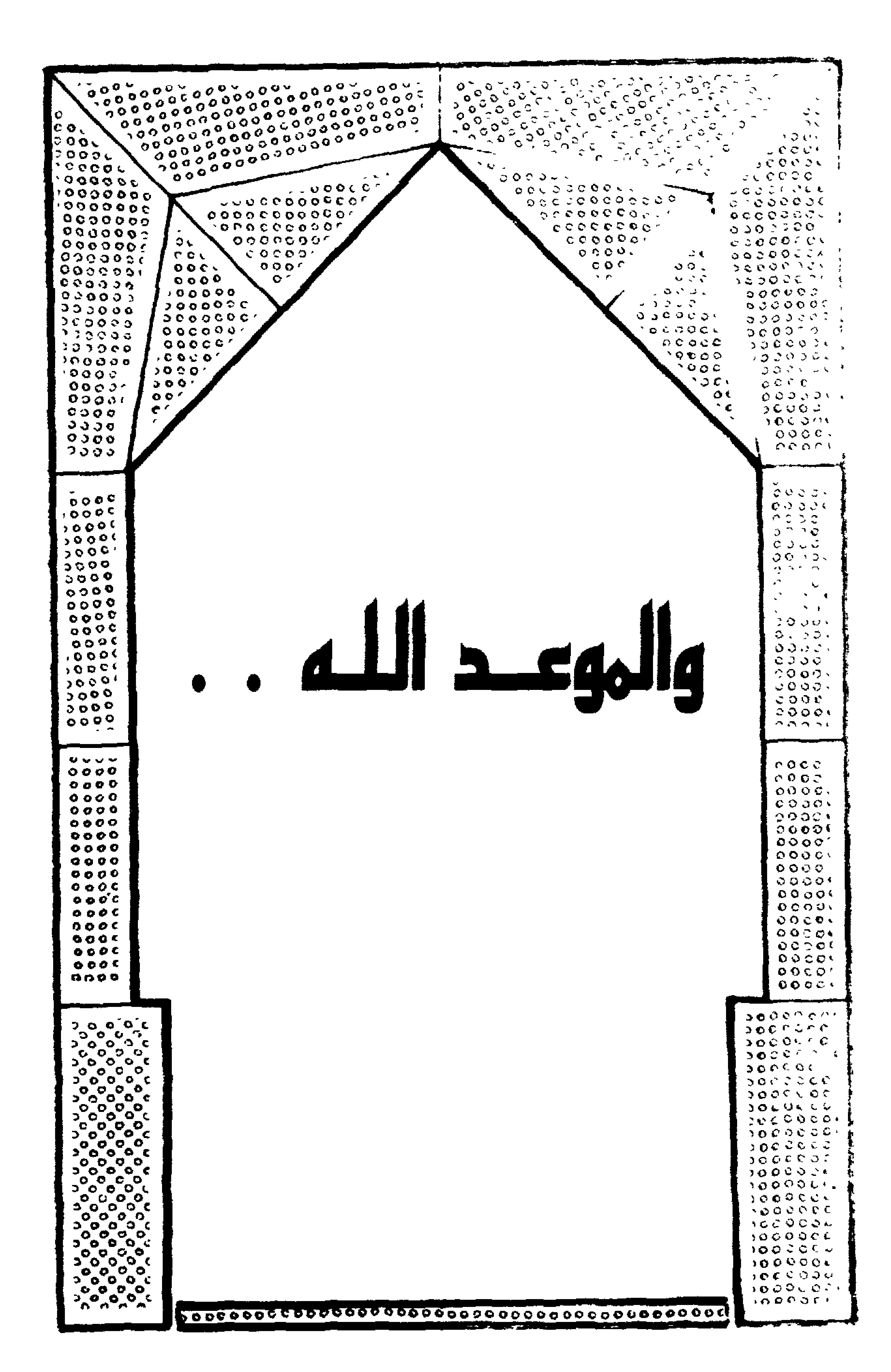
كل ذلك ، دون أن يشاركوا أهل الدنيا ، ولو فى الطيبات المشروعة والمباهج المباحة . . فلقد فطموا أنفسهم عنها وعاشوا وكأنهم غرباء بين أهلها .

ها هو ذا « شميط بن عجلان » يردد شعارهم الذى سرى فى حياتهم مَسْرَى الدم فى العروق .

« صَبْراً على لأوائِهاَ »

« والموعد الله » . . ! !


الله اكبر



والموعد الله ..



قلنا فى أول سطور الْكتاب : إنهم من الله الْعلى الْكبير تبدأ مسيرتهم المباركة . . وإلى الله الْعلى الْكبير ينتهى مَسْرَاهُمْ ولو أردنا أن نلخِّص حياتهم ومنهجهم فى عبارة واحدة لكانت : التجرُّد لله . .

والتجرُّد عندهم : يعنى تكريس كل ما معهم من روح وجسد ؛ وجهد ووقت لعبادة الله ومناجاته . . كما يعنى مع التكريس طرح النفس وفناءَ حظوظها .

يقول « ابن الْقيم » :

«صاحب التجريد ؛ لا يستغنى إلا بالله ؛ ولا يفتقر إلا إلى الله . . لا يفرح إلا بمرضاة الله ولا يحزن إلا على ما فاته من الله . . ولا يخاف إلا من سقوطه فى عين الله » . .

وهذا التجرد لله ؛ والْفناء فى جلاله ؛ هو عندهم « جوهر الْحرية » . . لأنهما ـ التجرد والْفناء ـ يعنيان أن صاحبهما لم يعد رقيقاً لشيء من أشياء الْحياة وعلاقاتها ؛ وأنه قد صار كما يقولون : (فَرْداً ؛ لِفَرْدٍ) . . هو ؛ والله . . فأَىّ سيادة هذه ؛ وَأَى جلال ؟ ؟ ! !

إن هذا التجرد يعنى عند « أهل الله » أن الشخصية الْباطنة للمتجرد قد اتصلت بخطوط مباشِرة مع الملأ الأَعلى ؛ بعد أن حققت أعلى درجات الانتصار فى حياة السّريرة والضمير . .

يقول « بشر الْحافي » :

« من أراد أن يذوق طعم الْحرية ويستريح من الْعبودية ؛ فليطهر السّريرة بينه وبين الله تعالى »

عندئذ تتفتح له الأبواب على درب الْحرية ؛ ويقطع الطريق وثْباً فى رعاية الله إلى المقامات الرفيعة فى التجردوالْفناء .

لا مكان لحظوظ النفس عند الذين يحيون فى موعد مع الله . . وهذا هو الإيمان الْحق . . وهو الْحرية الْحقة . . وهو التصوف الْوثيق .

يقول « الْجُنَيْد » :

« التصوف ؛ أن يُميتَك الْحق عنك ؛ ويحييك به » . .

ويقول « سحنون » :

« التصوف ؛ ألا تملك شيئاً ؛ ولا يملكك شىء »

ويقول « أبو يعقوب المزايلى » :

التصوف حال تضمحل فيها معالم الشخصية » .

هذا هو التجرد . الذى هو بدَوْره الالتزام للسائرين إلى الله . . وهو ليس ترَفاً رُوحياً . . بل فريضة مُحكمة ؛ لأنه التعبير الصحيح عن توحيد الله . .

ومن ثمّ فالتجرد عند « أهل الله » لا يقف عند التجرد عن حظوظ النفس وأهوائها ؛ ولا يعنى صرف الأبصار والْبصائر عن ناس الْحياة وأشيائها . . بل يتخطى ذلك كله إلى الْبعد المفقود ؛ حيث يتجردون حتى عن رؤية الطاعات والْقرُبات والمعاناة التى حققت لهم التجرد وسلكتهم فى موكب الْواصلين . . ! !

قال « الشبلى » يوماً لرجل :

« أتدرى لم لا يصحُّ توحيدك . . ؟

« لأَنك تطلبه بك . . » ! ! !

فالذى يظن أنه يطلب الله بجهده هو ؛ وليس بتوفيق مُطلق من الله ؛ لا يحسن - فى رأيهم - التجرد ؛ ولا التوحيد .

يقول « ذو النون المصرى » :

« عرفتُ ربى بربى . . ولولا ربى ما عرفتُ ربى » . .

فالله هو كل شىء ؛ وبه وحده تُدْرك الْغايات .

والتجرد من رؤية النفس حتى وهى فى أبهى فضائلها ؛ بعد تجردها عن رؤية الأَغيار كافَّة ، هو حقيقة التوحيد ؛ ولُبَابُهُ . .

وآية ذلك التجرد ماثلة فيما يقول « أبو عبد الله الْقُرشى » :

« ألا يبقى لك منك شىء » . .

وآيته كذلك ؛ تعرية كل قوى الْحيلة من طاقاتها المستعارة ؛ والرجوع بفاعلية الأَسباب إلى مصدرها الْحق سبحانه وتعالى . .

يقول « ميمون بن مهران » :

« . . يقول أحدهم : اجلس فى بيتك ؛ وأغلق عليك بابك ؛ وانظر هل يأتيك رزقك . . ؟

« نعم والله ، ليأتينَّه رزقه ولو أغلق عليه بابه وأَرْخى ستره إذا كان معه مثل يقين « مريم » ؛ و« إِبراهيم » عليهما السلام » . . ! !

إن التجرد فى أقصى حالات اكتماله ؛ يتضمّن التوكل فى أقصى صور كماله . . بل ويتضمّن كل فضائل التفوق الروحى عند « أهل الله وخاصّته » .

وفى هذه الْفقرة التى طالعناها لميمون بن مهران يقرر حقيقة التوكل وصدقه مقترنة ببرهانها المشهود .

فقبل أن يسأل الناس : كيف . . ؟ ؟ يُريهم المشهد وَيُطوقُهُمْ الْبرهان .

فهذه « مريم » عليها السلام :

« كلَّما دَخَل عليها زكريا المحراب وجَدَ عندها رزقاً . .

« قال : يا مريم أَنَّى لَكِ هذا . ؟

قالت : هو من عند الله . إن الله يرزُق من يشاءُ بغير حساب »

لقد كانت هى معتكفةً فى مُصلَّاها ؛ تفتح عينيها فجأة فإذا أمامها وبين يديها فاكهة الشتاءِ فى الصيف ؛ وفاكهة الصيف فى الشتاءِ . . ! ! !

وهذا أبو الأَنبياء « إبراهيم » عليه السلام :

قُلْنَا يا نارُ كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم . . » ! !

لقد أُلْقى به فى الأتُّون المستعر ؛ وراحت النار تأكل نفْسها دون أن يمسَّه منها سوء ـ أى سوءٍ . . ! !

هنا تتعرّى الأَسباب تماماً من وجودها النِّسْبى دون أن يكون ذلك مَدعاة لإهمالها فى تفكير « أهل الله » . . إنهم يقفون أمام هذه الظاهرة هاتفين بالمؤمين ألا يعبدوا الأَسباب وألا يقدرُوها فوق قدرها ؛ وأن يفتحوا بصائرهم على واهب الْقوى والطاقات والنتائج . . ثم لِيَتَبَتَّلوا إليه تَبتيلًا . .

□□□

وحين يتوفر للعبد هذا الْقدر من التجرد والتبتُّل يُزْلف إلى مباهج الْحب الذى لا حب مثله ؛ ولا حب بعده . . ! !

وهنا الروضات الْيانعات التى يتأنَّق فيها « أَهل الله » ويتألَّقون . . فمحبة الله هى المجْلى الْعظيم لَأحلى وأَروع أَيام الْعمر عند أُولئك الذين قال الله عنهم :

« يحِبُّهُمْ ؛ وَيُحِبُّونَه » ! ! !

وفى روضات المحبة الْيانعات ؛ تتحول الْعبادة إلى خير ما فى الْحياة من بهجة ومتاع .

وفى ظلال هذا الْحب يؤدى الْعابد فروض ولائه وعبادته فى نشوة الْكلِف المحبور . . لا المكلَّف المأمور . . ! !

وهكذا رأينا حب الله يتجاذب « أَهل الله » إلى آفاق شتى . . فبعضهم يود أن يُعَمَّر فى الدنيا ألف عام ليزداد من حلاوة الْعبادة والشوق . . وبعضهم يود الموت من فوره ويشتريه بكل ثمين وغال ؛ لكى ينعم بحلاوة اللقاء . .

يقول « عامر بن قيس » وهو يبكى فى مرض موته :

لست أبكى على دنياكم رغبة فيها . .

« إنما أبكى على ظمأ الهواجر ؛ وقيام الليالى الشاتية » ! ! !

ويقول « عبد الله بن أبى زكريا » :

« لو خيرت بين أن أعمَّر مائة عام أَقضيها فى طاعة الله ؛ أَو أُقبض فى يومى هذا ؛ لاخترت الموت الآن شوقاً إلى الله ورسوله والصالحين من عباده » .

وعندما يبلغون هذا المقام ؛ يبلغ هُيَامُهم بذكر الله وبالصلاة أشدّه وأقصاه .

إن المضمار أسوة حسنة بالرسول الْكريم الذى يقول :

« إذا مررتم برياض الْجنة فارْتعوا

قالوا : وما رياض الْجنة يا رسول الله ؟

قال : مجالس الذكر » .

والذى كان يقول لمؤذنه بلال عندما يحين موعد الصلاة . .

« أرِحْنا بها يا بلال » . . ! !

ولم يقل « أرحنا منها » . . والذى قال :

« جُعلتْ قرة عينى فى الصلاة » ! ! !

إن « أهل الله » لتهزُّهم هزاً هذه الآية الْكريمة التى تقول :

« وَلذكْرُ الله أكبر » . .

فهم لا يفسرون كلمة « أكبر » هنا بِعِظم الأَجر وكبر المثوبة فحسب . بل يفسرونها أساساً بما تومىء إليه من جلال الله وجبروت سلطانه ورفعة كبريائه وشأْنِهِ .

وكما قال بعضهم :

« لم يتفضل الله علينا بدعوتنا إلى ذكره وإثابتنا عليه بالْجنة فحسب . .

« بل كان فضلُهُ قبل ذلك أن سمح لنا بأن تُردد ألسنتُنا اسمَهُ ؛ وتستوعب قلوبُنا ذِكْره » . . ! !

ويقول « الْكتّانى » رضى الله عنه :

« لولا أن ذكر الله فرض علىّ ؛ لما ذكرته . .

إجلالاً له ! ! » .

« أَوَ مِثْلى يذكُرُهُ ؛ قبل أن يغسل فمه بألف توبة مُتَقَبَّلة . . ؟ ! !

والذِّكر ؛ ومجالس الذكر . . إنما يعنيان عند « أهل الله » حالات الحضور الحق مع الله سبحانه وتعالى ذاكرين آلاءه ؛ مقدسين أسماءَه .

وهو ليس ترفاً فى العبادة ولا نافلة - بل فريضة وأساس . . هو ضرورى لكى ينتقل العبد من الغافلين إلى الذاكرين . . ومن الذين يعيشون رهن « حلم الله » إلى الذين يحيون فى رحاب رحمته . .

يقول « الكتانى » :

« الغافلون ؛ يعيشون فى حلم الله »

« والذاكرون ؛ يعيشون فى رحمة الله »

« والعارفون ؛ يعيشون فى لطف الله »

« والصادقون ؛ يعيشون فى قربِ الله »

فذكر الله إذن ينقل المؤمن من عالم ما قبلَهُ إلى عالم ما بعدَهُ . . من عالمِ حلم الله عنك ؛ إلى عالمِ رحمته ولطفه ؛ وحبه وقُربه . . من عالم الغفلة . . إلى عالم الذكْر ؛ فالمعرفة ؛ فالصدق . .

وعندما نادى الله عباده قائلا :

« فاذكرونى ؛ أذكرْكم »

وضع الذكْر والذاكرين فى أعلى منازل القُرُبات والمقرَّبين . ولقد أدرك « أهل الله » هذا ؛ ليس لما يمثله « الذكْر » من شرف المكانة وشَرف الصحبة فحسب . . بل ولما يمثله من ضرورة وحتْمية . .

فإذا كانت حياة العابدين تعتمد على القلوب المرهفة التقية ؛ فإن

خير ما يجلو القلوب ويرهفها هو «ذكر الله» . .

يقول «عوف بن عبد الله» :

«ذكر الله صِقال القلوب» . .

وهو ضروري للمريد السائر إلى الله . . وللولي الذي نزل في ضيافة الله . . فبالنسبة للمريد ؛ يقول «أبو علي الدقاق» :

«الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى .

بل هو العمدة في هذا الطريق . ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر» .

وبالنسبة للواصلين يقول :

«الذكر منشور الولاية - أي المرسوم الذي يُعلن تبوأ الولي منصب الولاية - فمن وفق للذكر منح المنشور . . ومن سُلب الذكر ؛ فقد عُزل» .

وكما يتصور الفيزيائيون أو يكتشفون قوانين تفسير قيام الكون وتماسُكه من جاذبية ونسبيّة . . فإن «أهل الله» يرون في العلاقات القائمة بين العباد وربهم الأعلى والتي يُجَوْهِرُها ذكر الله سبحانه . . يرون في هذه العلاقات سر بقاءِ الحياة واستمرارها .

يقول «عون بن عبد الله» :

«لو يأتي على الناس ساعة لا يُذكر الله فيها ؛ لهلَك من في الأَرض جميعاً»

ولكن من حسن حظ البشَر ؛ أنه لا تمر من الزمان لحظة واحدة بل ولا جُزَيْء من اللحظة إلا ولله فيها ذاكرون ومُسبِّحون . . فليس الناس وحدهم هم الذين يذكرون الله ويسبحون بحمده . بل الشجر ؛ والطير ،

والجبال ؛ والرمال . .

وصدق الله إذ يقول :

« وإن من شيءٍ إلا يُسبِّح بحمده

« ولكن لا تفقهون تسْبيحهُم »

وبالنسبة للناس ؛ يرى « أهل الله » في الذاكرين حُرّاس الحياة . . ! !

يقول « عون بن عبد الله » :

ذاكر الله في غفلة الناس ؛ كالرجل القوى الذى يظهر فى الفئة المنهزمة ؛ فيمنحها التماسُك والثبات ولولاه لدامت هزيمتها .

« كذلك من يذكر الله فى غفلة من الناس ؛ لولاه لَهَلك الناس » . . ! !

□□□

وإن « أهل الله » ليُولون ذكْر الله من اهتمامهم وْاستعدادهم وإجلالهم ما يمليه عليهم توقيرهم الله وإدراكهم لجلاله وتأدُّبهم فى حضرته . .

فهذا واحد منهم ـ هو « خليد بن عبد الله » كان يأمر بالبيت فينظف ؛ ثم يغلق باب حجرته ؛ ويجلس على مُصلاه ؛ ويقول :

« مرحباً بملائكة ربى . .

« أما والله لأشهدنكم اليوم خيراً . .

« خذوا باسم الله . . »

ثم يمضى فى تسبيح الله وحمده وذِكره ؛ وروحُه تتفجَّر حماساً وشوقاً وغبطة . . ! !

والذكر عند « أهل الله » قيمَة تعبِّر عن ذاتها بذاتها . . قِيمة يتحد فيها الشكل بالمضمون اتحاداً لا يسمح باللَّغو أبداً . .

ومِن ثم ؛ لم يضعوا « مواصفات » خاصة لذكر الله . . فساعة الذكر إما أن يكون العبد ذاكراً لله حقاً فعندئذ يُملى عليه جلال الموقف الشكل المناسب والصيغة الملائمة . . وإما أن يكون مجرد محترف أو هاو أو متظاهر ؛ فهذا لا يدخل فى حسابهم ؛ ولا تقع عليه نظراتهم .

أجل . . سواء عند « أهل الله » أن يذكر العابدون ربهم سراً أو جهراً . . فرادى ؛ أو مجتمعين . .

المهم أن يكون الذكر ذكراً . . والذاكر ذاكراً . . أى أن يكون هناك حضور كامل قدر المستطاع ؛ وأدب كامل يملأ الزمان والمكان والمناسبة . .

إن « أهل الله » يذكرون الْحديث القدسىّ ويذكُرون به . . الحديث الذى يحكى قول الله سبحانه :

« أنا جليسُ من ذكرنى » . . ! !

هنا الميزان الذى لا ميزان مثله ، ولا ميزان بعده . .

حين تذكر الله فالله جَلِيسُك . . ياللرَّهبة التى تذيب الصخر . . ويا للْجلال الذى يدكُّ الجبال دَكّا . . ! !

الله جَلِيسك . . فانظر إذن كيف تكون زماناً ، ومكاناً ، وهيئة ، ومُناسبة . . ففى مثل هذا الموقف لن تكون بحاجة إلى من ينظم لك هيئتك ، وَسَمْتَك ، وحركاتك ، وكلماتك . . أنت وحدك أدْرَى . . . ! !

□ □ □ □

قلنا من قبل : إن « أهل الله » حين يحققون لأنفسهم التجرد والتوكل ، ويُزلفون إلى رياض المحبة والفناء الذى يحققون به التكامُل . . تحيا أرواحهم فى شغف مطلق بذكر الله ، وبالصلاة . .

ولقد رأينا وقفتهم مع ذكر الله ، فلننظر الآن وقفتهم مع الصلاة ولكنْ . لماذا الذكر والصلاة . . ؟ ؟

إن لكل العبادات وكل القرُبات قدرها وحرمتها وشغف الأولياءِ المتقين بها ، بيد أن الصلاة والذكر يتوجان العبادات جميعاً والقرُبات كافةً . .

ذلك أن الله سبحانة شرع الصلوات فى اليوم والليلة خمس مرات عدا ما يتخلَّلها من نوافل وسُنن . .

و « أهل الله » بما معهم من بصيرة ونور يدركون أن الله الغنى عن عباده لم يفرض الصلوات خمساً عَبْر اليوم وليلته إلا لسرٍّ عظيم وحكمة بالغة . .

لقد جعلها خمساً . . ثم لم يُركِّزها فى زاوية من زوايا النهار أو طرف من أطرافه . . بل وزعها توزيعاً متناسباً مع اليوم كله نهاره وليله . . أفلا يدلُّ ذلك على شىءٍ . . ؟ بلى ، « وأهل الله » خير من يفطن لأسرار التشريع وحكمته .

وهكذا تواصَوْا بالصلاة حين أدركوا أن الله أرادها لتكون خط الاتصال الدائم والمستمر بينه وبين عباده ، ولتكون وليمته المباركة فى الأرض يُنادى إليها الناس كل بضع ساعات مرة ، لينزلوا فى ضيافة الله ويتزودوا من رضوانه .

فمن ذا الذى يهيىء الله له وسيلة الاتصال المباشر والدائم بحضرته

وقُدسه ثم لا يستثمر هذه النعمة بأقصى وأقصى جهده وجهاده . . ؟ ؟

والواصلون إلى الله ، والماثلون فى حضرته ، هم أكثر العابدين حرصاً على هذا الاتصال - ليس فقط لما يرجون من مزيد النعمة والفضل . . بل ولأنهم يعلمون مدى حاجة العباد إلى عون الله حتى حين يكونون من الأولياءِ والأبرار والواصلين .

فلطالما سمعوا عن نبيهم الذى اصطفاه الله واجتباه أنه كان دائب اللَّهج بهذا الدعاءِ :

« يا مُقَلِّبَ القلوب ، ثبت قلبى على دينك » .

حتى إذا سُئل عن سر إلحاحِهِ بهذا الدعاءِ ، قال :

« إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، يُقلبها كيف يشاء » . .

من أجل هذا كان ولاؤهم الوثيق للصلاة . . وكان كذلك لِذكر الله . . فمعنى الاتصال والاستمرار والحاجة فى الاثنين واحد .

والذكر مطلوب فى كل آن . . وهو لا يتمثل وحسب فى كلمة « لا إله الله » وإن تك هذه من أعلى شعائر الذكر وأسماها . . لكنه يتضمن كل خلجة قلب ، وكل ابتهالة لسان يتحقق من خلالهما الحضور مع الله واستشعار عظمته ، ورؤية آلائه ونعمائه وآياته . . .

من أجل هذا ، كانت تلاوة القرآن عند « أهل الله » تاج الذِّكر والذاكرين .

□ □ □

على أن ثمّت معنىً آخر بالغ الأهمية فى شغف « أهل الله وأوليائه »

بـذكـــر الله وبـالصـــلاة . .

ففى هذا الشغف وهذا الْولاء دحْض حازم لبعض الدخلاءِ على الطريق . الذين يزعمون أنهم بالوصول إلى الله سبحانه وتبوُّئهم مكانة الولاية قد أصبحوا أحراراً فى التحرُّر من بعض التكاليف والعبادات .

لا . . إن « أهل الله » ليدركون أن طاعة الله فى تعاليم دينه هى طريق البدءِ ، وطريق السير ، وطريق الختام . . وأن كل زيغ عنها أو تفريط فيها إنما يعنى ـ والْعياذ بالله ـ الطرد من نعمته وحضرته .

كذلك ، فهم يدركون أن الدأَب على أداء فرائض الدين ونوافله ، ليس طريقهم إلى المزيد من فضل الله وحبه وحسب ، بل هو أمانهم الوحيد من الخذلان . .

فأَمام أبصارهم ، تبرق دائماً كلمة الصدِّيق الأَكبر :

« لا آمَن لمكر الله ، ولو كانت إحدى رجلىّ فى الجنة »

فالتفريط مرفوض بعد أَن سمعوا قول الله لرسوله :

« ولا تُطع من أَغفلْنا قلبَه عن ذكرنا » .

والإفراط مرفوض بعد أَن سمعوا قول الله لرسوله :

« ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى »

والاتباع وحده ـ اتباع الرسول والقرآن والشريعة ـ هو طريقهم الأْوحد إلى الله .

من أجل هذا ، وعلى الرغم من أنهم أهل الكرامات والخوارق ، فإنهم لا يجدون للخوارق أية قيمة ما لم تكن صادرة عن ولى تقىّ ، وما لم يكن صدورها تعبيراً خاصاً فى مناسبة خاصة عن دعوة للحق يراد تزكيتها بالكرامة ، أو فضيلة يراد دَعْمُهَا بها . .

هذا هو « أبو يزيد البسطامى » رضى الله عنه يقال له :

— إن فلاناً يجىء من بلده إلى مكة فى ساعات . .

فيجيب قائلا :

— وأى بأس . . ؟ إن الشيطان يطوف الأَرض كلها فى لحظات . . !

ويُقال له :

— إن فلاناً يطير فى الهواءِ ، ويمشى على الماءِ . .

فيجيب قائلا :

وأى فضل له . . ؟ إن الطير يطير فى الهواءِ . . وإن السمك يمخرُ عُباب الماءِ . . ! !

ثم يقول :

« لو نظرتم إلى رجل أُعطى من الكرامة حتى يتربَّع فى الهواءِ ، فلا تغترُّوا به حتى تنظروا كيف هو عند أمر الله ونهيه . . وحفظ حدوده . . وأداءِ شريعته . . » ! !

فـ « أهل الله وأولياؤه » . أكثر المؤمنين والعابدين التزاماً بشريعة الله ، ومن ثَمَّ كان ارتباطهم الروحى الذى لا تهدأ أشواقه إلى ذكر الله وإلى الصلاة ، للمعنى الذى أسفلنا شرحه وتبيانه . . .

□ □ □

وكما ينهض الذِّكر لديهم معياراً لاستقامة الضمير والمسير . . فكذلكم الصلاة . .

هذا « أبو العالية » يقول :

« إنى لأرحل إلى العالِم مسيرة أيام ، فأول ما أتفقّد من أمره صلاته . فإن وجدته يقيمها ويُتمها أقمت عنده وسمعت منه . . وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه وقلت لنفسى : هو لغير الصلاة أضْيَع . . ! !! »

أجل ـ هو لغير الصلاة أضيع . . فالذى لا يجد لله ولا لنعمائه حقاً عنده فى خمس فرائض يصليها . فينظف بالوضوءِ لها جوارحه . . ويزكّى بها روحه . . ويرضى بها ربه . . الذى لا يقرّ لله بهذا الحق الهيِّن الأداءِ ، والمتواضع اليسير ، لا يرُجى منه بعد ذلك بر بنفسه ولا برُ بالآخرين . . وليست الصلاة وحسب هى دليل « أهل الله » إلى أهل الخير . . بل إن استقصاءَ آدابها هو أيضاً دليل !

هذا « أبو يزيد البسطامى » يحدثونه عن رجل مشهور بالعلم والزهد ، فيسافر « أبو يزيد » إلى البلد الذى يقيم به الرجل ، وهناك يعلم أنه بالمسجد ، فيسارع للقائه . . ولم يكد يبلغه حتى وجده بطريق المصادفة يرمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف « أبو يزيد » من فوره عائداً إلى بلده وقال : (هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يوثق بعلمه وزهده وصلاحه) . . ؟ !

□ □ □

إن « الصلاة » عند « أهل الله » تمثل لقاءً حقيقياً مع ذى الجلال والإكرام .

من أجل هذا كان يغشى أرواحهم ما يغشى ، وهم قائمون بين يديه

سبحانه ، يصلون ويتلون آياته .

وإنهم ليفرقون بين المحافظة على الصلاة والحفظ لها .

وليست المشكلة عندهم أن نحافظ عليها ، أى نؤديها فى أوقاتها . . بل أن نحفظها ، أى نؤديها بالخشوع الكامل والمثول الحق . . !!

يقول « أبو بكر بن العربى » :

« إنى لَأعرف من الذين يحافظون على الصلاة آلافاً أُحصيهم . .

« أما الذين يحفظونها فلا أَجد منهم خمسة » . . ! !

ولقد كانوا يبذلون الجهد الأكبر من رياضة النفس والروح فى سبيل اكتساب الموقف الصالح والخاشع لكل صلاة .

يقول « ثابت البنانى » :

« كابدتُ الصلاة عشرين سنة . .

« واستمتعت بها عشرين سنة »

يعنى بذلك أنه خلال أربعين سنة قضاها فى العبادة الموصولة ، كان هناك عشرون عاماً قضاها فى تدريب نفسه على كل ما تتطلبه الصلاة من خشوع وحضور ويقظة . . فلما تمّ له ذلك بعد معاناة ومكابدة طوال السنوات العشرين ، صارت متعته بالصلاة وفيها تفوق كل متاع .

وإنا لنعجَب عجباً لا ينتهى حين نتتبع أنباءَ أولياء الله الصالحين وهم يُصَلون . . فحفاوتهم بالصلاة ، وتوقيرهم إيّاها ، وفناؤهم فيها أمر يتعاظم كل وصف وكل إِطراءٍ . .

هذا هو « زرارة بن أوفى » يصلى بالناس صلاة الفجر ، فيقرأ بعد الفاتحة . . سورة « المدثِّر » ويفنى فى جلال الصلاة ورهبتها ، حتى إذا

وصل فى تلاوته الآيات الكريمة :

« فإذا نُقِرَ فى النَّاقُور * فذلك يومئذ يومٌ عسير * على الكافرين غيرُ يسير » .

تسحقه الرهبة الجليلة ، فيسقط من فوره ميتا وشهيداً . . ! !

وهذا هو « منصور بن المعتمر » كانوا يقولون عنه :

« لو رأيت منصوراً ، وهو يصلى لقلت : يموت الساعة » . . ! ! !

ولقد كانت ابنة جار له تبصر فى هزيع الليل شيئاً يشبه الخشبة المنصوبة فوق سطح دار « منصور » . . وذات ليلة أرسلتْ بصرها حيث تعودت أن ترى ذلك الشيءَ الذى حسبته خَشَبَة فلم تجده مكانه فسألت أباها :

أين الخشبة التى كنت أراها كل ليلة منصوبة فوق سطح « منصور » . ؟ فأجابها أبوها :

« يابُنَيَة . .

« ذلك « منصور » نفسه ، يقوم الليل مُصَلياً » . . ! ! !

تلك هى الصلاة حقاً . يَفنى فيها « أهل الله » فتلة الأيقاظ المشاهدين ، ولا يصرفهم عن جلالها رغبة ولا رهبة .

فـ « عمرو بن عتبة » يقف فى ظلام الليل وَهدأته يصلى ، ويسمع أصحابه القائمون إلى جواره فى الفضاء المكشوف زئير أسد يقترب ، فيولون هاربين . . ويستمر « عمرو » فى صلاته لا يهتز ولا يختلج . .

ويقترب منه الأسد ، ويطوِّف حوله ويتشمّم ويحملق . .

و « عمرو بن عتبة » كأنه غير موجود . . وينصرف عنه الاسد فى

سلام ، ويعود أصحابه فيسألونه بعد أن أتم الصلاته :

أما خفت الأسد . . ؟ فيجيبهم : إنى لأستحى من الله أن أخاف شيئاً سواه وأنا بين يديه .

وعن « عمرة بن عتبة » هذا ، رضى الله عنه . وعنهم أجمعين يقول « أبو نصر بشر بن الحارث » :

« كان عمرو بن عتبة » يصلى والغمام فوق رأسه ، والسباع حوله تحرك أذنابها . . . ! !

لقد كانت الصلاة قرة أعينهم إلى الحد الذى كانوا يستقلون أعمارهم مهما تطل لكى يقدموا منها المزيد إلى الله . .

هذا « ثابت البنانى » يضرع إلى الله داعياً :

« اللهم إن كنت أعطيت أحداً من خلقك نعمة الصلاة فى القبر ، فأعطنيها » . .

إنه يكاد يتمنى الخلود ليملأه صلاة ثم صلاة ثم صلاة . . . ! ! أما والخلود فى هذه الدنيا غير ميسور ، فهو يسأل ربه فى ضراعة : إن كان يحق له أن يطمع فى فضل ربه ورحمته ونعمته ، فيعطيه من الحياة قبساً بَرْزَخِياً يمكنه من أداء الصلاة فى قبره ، ويظفره بنعمتها وحلاوتها . . ؟ !

□ □ □

لكُم الله ، يا أهل الله . . لَكَمْ أنتم فى الحياة نورها ، وشرفها ، وضميرها ، وعافيتها ، وهُدَاها . . . ! !

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القوميه ٨٥/٣٨٦٧

ISBN - ٩٧٧ - ١٢٤ - ١٠٥ - ٣ الترقيم الدولى



أسسه
مصطفى أمين وعلي أمين
ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :
طلعت الزهيري

نائب رئيس التحرير :
عبد العزيز عبد العليم

مدير التحرير :
حسين فريد

العدد ٢٤٣ — رمضان ١٤٠٥ — يونية / حزيران ١٩٨٥

الإدارة : أخبار اليوم ٦ شارع الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولي ٩٢٢١٥ — محلي ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية :
قيمة الاشتراك السنوي ٦ جنيه مصري

البريد الجوي

دول اتحاد البريد العربي والإفريقي { ١٥ جنيه مصري — ١٣ دولارا أمريكيا

باقي دول العالم (أوربا وأمريكا وآسيا واستراليا) { ٢٠ جنيه مصري — ١٨ دولارا أمريكيا

• ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
• ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٢٣ ش الصحافة القاهرة ت ١٧٤٨٨٤٤ (د خطوط)

أسعار كتاب اليوم

المغرب	١٢٥٠ فرنك
لبنان	٦٠٠ ق ل
الأردن	٦٠٠ فلس
العراق	٦٠٠ فلس
الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٧ ريالات
السودان	١٢٥٠ مليما
تونس	١٢٥٠ مليما
الجزائر	١٢٥٠ سنتيما
سوريا	٥٠٠ ق س
ليبيا	٦٠٠ سنت
الخليج	٨٠٠ فلس
غزة	٤٠ سنت
اليمن	٨٠ ص
الصومال ونيجيريا	٨٠ ص

في الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
باكستان	٣٥ روبية
سويسرا	٤ فرنك
اليونان	١٠٠ دراخمة
النمسا	٤٠ شلن
الدنمارك	١٥ كرونات
السويد	١٥ كرون
الهند	٣٥٠ سنتا
الصومال	٦٠٠ فرنك
هولندا	٥ فلورين
انجلترا	١٠٠ ص
فرنسا	١٠ فرنك
ألمانيا	٥ مارك
كندا وأمريكا	٣٠٠ سنت
البرازيل	٤٠٠ كروزيرو
نيويورك وواشنطن	٣٥٠ سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠ سنت
استراليا	٤٠٠ سنت

٥٠ قرشا